دروس التاريخ المغربي

(تأليف)

عبد الله بن العباس الجراري الرباطي

الجزء الرابع

في ملخص دولة الاشراف السعديين

٩١٥ ـ ١٠٦٩

للشباب المستفيد

(نحن نقص عليك احسن القصص بما اوحينا اليك هذا القرآن)
(قرآن كريم) من سورة يوسف

اذا علم الانسان اخبار من مضى * توهمته قد عاش من اول الدهر

١٣٦٩ هـ ـ ١٩٥٠ م



دار الكشاف
للنشر والطباعة والتوزيع
بيروت ـ لبنان

دروس التاريخ المغربي

(تأليف)

عبد الله بن العباس الجراري الرباطي

الجزء الرابع

في ملخص دولة الاشراف السعديين

٩١٥ - ١٠٦٩

للشباب المستفيد

(نحن نقص عليك احسن القصص بما اوحينا اليك هذا القرآن)
(قرآن كريم) من سورة يوسف

اذا علم الانسان اخبار من مضى * توهمته قد عاش من اول الدهر

١٣٦٩ هـ - ١٩٥٠ م



دار الكشاف
للنشر والطباعة والتوزيع
بيروت - لبنان

يكفي التاريخ شرفاً كون البخاري
صنف تاريخه في المدينة المنورة عند قبر
النبي عليه السلام . وكان يكتبه في الليالي
المقمرة وسوى بينه وبين صحيحه .
انظر الاعلان للسخاوي

١٣٦٩هـ - ١٩٥٠ م

﴿ مصادر هذا الجزء ﴾

نزهة الحادي	لابن عبد الله اليفرني
درة السلوك	لابن القاضي
المنتقى	....
درة الحجال	....
النفحة المسكية	لابي الحسن التعجروتي
نشر المثاني	لابي عبد الله القادري
المرآة	لابي حامد محمد العربي الفاسي
الدوحة	لابن عسكر
الممتع	لا بن عبد الله محمد المهدي الفاسي
الاستقصا	لابي العباس الناصري



واياه استعين

وصلى الله على سيدنا محمد وآله

الدولة السعدية

الدرس الاول

(من الجزء الرابع)

ذكر اولية الاشراف السعديين ، وتحقيق نسبهم

اصل رجال الدولة السعدية من ينبع (١) النخل من ارض الحجاز . وهم اشراف يتصل نسبهم بمحمد النفس الزكية ، فهم ابناء عم دولتنا العلوية السعيدة . اشراف سجلماسة (٢) ولا يلتفت (٣) لمن نفى شرفهم .

---

١) كينصر حصن له عيون ونخيل وزروع بطريق حاج مصر ه. ق.
٢) اول من دخل منهم المغرب ــ سجلماسة مولاي الحسن بن قاسم .
٣) فنسبهم في غاية الشهرة لا مطعن فيه كما قال ابن عرضون ه. من النزهة .

اول من قدم منهم درعة المولى زيدان بن احمد طلبه سكانها رجاء الخصب والبركة .

اتصال السعديين بالملك ، واول من تقلده

لم يزل اسلاف هؤلاء الاشراف مقيمين بدرعة الى ان نجب فيهم ابو عبد الله القاسم بامر الله فنشأ نشأة العفاف والعزة . وفي وفادته على الحرمين الشريفين لقي جماعة من اهل العلم والصلاح . فاجتمع في المدينة برجل صالح الحال لمح له بما سيكون له ولولديه من المستقبل فتمكن ذلك من نفسه مع رؤيا رآها رشحت تلك الاشارة الى ان قام سنة ٩١٥ - ١٥٠٩ .

سبب قيام ابي عبد الله القاسم

كان العدو الكافر قد احاط باهل السوس حتى اظلم الجو في وجوههم باستحكام شوكته ، واصبح المسلمون في امر مريج . اذ فقدوا رجلاً تجتمع عليه كلمة الاسلام في وقت مال فيه امر بني وطاس الى الانخذال والسقوط ، وفشلت ريح ملكهم في بلاد السوس (١) واصيبت الحركة العلمية في عزتها ولم تعد ترى قيمة لرجالها . جراء الفتن والقلاقل السائدة . في هذا الظرف العتيد

---

١) مع بقائه في حواضر المغرب .

قصدوا الصالح محمد بن مبارك ، وقصوا عليه ما دهمهم من افتراق الكلمة ، واضطهاد العدو لكرامتهم ، وخاطبوه في الولاية فأبى ، لكنه دلهم على ابي عبد الله القاسم ، فكان جديلها كما ترى (١)

جهاد عبد الله القاسم وانتصاراته

عند ما تم الامر لابي عبد الله القاسم ـ باتفاق القبائل السوسية عليه : دعا الناس الى مقارعة البرتغال وجهاده ، وطرده عن ثغور المغرب وسواحله . فلبت جموع المسلمين دعوته ، وصمدوا معه الى النصارى ـ وناوشوهم الحرب . فاتيح الفتح والنصر للقاسم . وعادت عزة الاسلام الى مقرها وأخذ الشعب لهذه الغاية يسترجع قوته الفكرية حيث دخل في طور من اطوار التجديد عاد بسببه نهوض الامة المضاع الى نصابه . هناك تيمن المسلمون بطلعته ، وتضاعفت محبتهم للامير .

ابو عبد الله القاسم يعقد ولاية العهد لابنه ابي العباس الاعرج

لما قضى الله ببيعة ابي عبد الله القاسم ، واجتماع المسلمين عليه : ندب الناس الى بيعة اكبر ولديه ـ الامير ابي العباس الاعرج ، فبايعوه (وذاك ما ينبيك في وضوح على وحدة الشعب واطمئنانه

---

١) وذكروا اسباباً غير هذه ، انظر النزهة .

لمن يأخذ بضبعيه ويضعه في الذروة اللائقة) وكان هذا مبدأ ظهوره . وهذا الالتفات من الامير ناشىء عن رؤيا (١) رآها في شأن ولديه وانهما يملكان المغرب .

انتقال عبد الله القائم الى آفغال ووفاته

عند ما انتشر خبر ابي عبد الله في الاوساط السوسية ، وبعد صيته المملوء حسناً ونصرة لواء ـ وفد عليه اشياخ حاحة والشياظمة ، وشكوا اليه عيث البرتغال ببلاده ، وارادوا منه الانتقال اليهم هو وولي عهده . فأجابهم للحين وتوجه صحبتهم الى آفغال من حاحة وترك ولده ابا عبد الله الشيخ بالسوس ، يسوس الرعية وينظم الادارة مباكراً العدو بالقتال ومراوحاً . أما ابوه القائم فاستمر بآفغال الى ان وافاه اجله سنة ٩٢٣ ـ ١٥١٧ (٢) .

خبر الامير ابي العباس احمد الاعرج

بعد وفاة ابي العباس القاسم في التاريخ السالف : اجتمع

---

١) وهي ان اسدين خرجا من احليله فتبعهما الناس الى ان دخلا صومعة ووقف هو ببابها فعبرت له الرؤيا بملك ولديه ـ وهناك حكاية اخرى جرت لهما بمكتب القرآن فأولت بذلك ايضاً .

٢) ودفن هناك ازاء ضريح الشيخ ابي عبد الله محمد بن سليمان الجزولي الى ان نقل لمراكش بنقل الشيخ المذكور .

الناس على بيعة ولده وولي عهده ابي العباس الاعرج . وبعد استقامة امره ـ صرف عزمه الى تمهيد البلاد وتعبئة الجيوش الى الثغور ، وشن الغارات على العدو الذي خيم بشاطىء البحر ، وعاث في تلك السواحل . فأجلاهم عنها حتى قيل في مدحه :

فلله هذا الهاشمي وفضله   فلولاه صال الكفر اعظم صولة

دخول ابي العباس مراكش واستيلاؤه عليها

بسبب ما حصل لابي العباس الاعرج من الانتصار ـ بايقاعه بنصارى السوس : انتشر ذكره في البلاد المغربية ، وأهرع الناس اليه من كل جانب ناشدين طاعته . وقتذاك كاتبه امراء هنتاتة ـ ملوك مراكش يخطبون وده فاجاب داعيهم ، وانتقل الى مراكش سنة ٩٣٠ ـ ١٥٢٣ فاستولى عليها ، وأثناء استيلائه هذا نهض اليه ابو عبد الله الوطاسي البرتغالي .

النفرة بين ابي العباس الاعرج واخيه الشيخ

كان ابو العباس من الصرامة والشهامة درجة نادرة وكان اخوه محمد الشيخ أصغر منه سناً ، رغم ذلك كان يستشيره في اموره . ويفاوضه في مهمات الدولة والادارة ويستعين بنجدته في الزحوف والمعارك ، مستضيئاً برأيه الثاقب في الحوادث والمعضلات .

الى أن دخل الوشاة بينهما . فـأفسدوا القلوب . وأصبـح الصفاء عداوة ، وغدت رحا الحرب تدور بين الاخوين ، وانقسمت الامة فرقتين ، كل تنتصر لمتبوعها . لكن كان جانب الشيخ أرجح لما سبره السوسيون من نجدته وكفايته ، فكان ذلـك السبب الوحيد في انتصاره على اخيه وقبضه عليه وإيداعه السجن هو واولاده . وسرعان ما استقل بالملك بعد أن كان وزيراً . وذلك سنة ٩٤٦– ١٥٣٩ (١) وكانت دولة ابي العباس من يوم بويع الى ان قبض عليه ٢٣ سنة . وبعد موته بويع لابنه زيدان فلم يتم امره ومات سنة ٩٦٠ _ ١٥٥٢ .

زبدة الدرس ومحفوظته

اصل السعديين من ينبـع النخـل ، وشرفهم ثـابت ، وأبو عبد الله القـائم اول من تـأمر منهم سنة ٩١٥ . واشتغل بجهاد العدو _ البرتغال فكان النصر حليفه ثم عقد عهده لاكبر ولديـه ابي العباس الاعرج . واستوطن (آفغال) الى ان مات سنة ٩١٥ . فاجتمع الناس على ولي العهد وبايعوه ، فاجلى العدو عن

---

١) ولم يزل ابو العباس في حكم الثقاف الى ان قتلت الاتراك بالسوس اخـاه محمد الشيخ في ذي الحجة عام ٩٦٤–١٥٥٦ وحينما اسرع قائده علي بن ابي بكر بقتل ابي العباس واولاده ذكوراً واناثاً انظر نزهة الحادي .

الثغور ودخل مراكش ، في هذا الوقت حصل بينه و بين اخيه الشيخ نفرة ، وكانت الاكثرية الساحقة في عضد الشيخ ، فقبض على الامير ابي العباس وأودعه السجن .

تمرين الدرس

١) من أين أتى الأشراف السعديون ؟ وهل شرفهم ثابت ؟ من ولي الأمر منهم أولاً ؟ متى عقد أبو عبد الله القائم ولاية العهد لولده ؟

٢) أتذكر سبب تقليد ابي عبد الله الأمارة ؟ وما سبب استيطانه آفغال ؟ أي شيء نشأ عن العداوة الحاصلة بين الأخوين أبي العباس ومحمد الشيخ ؟ ومن بويع بعد وفاة ابي العباس وهل تم له الأمر ؟

الدرس الثاني

السلطان ابو عبد الله محمد الشيخ الملقب بالمهدي . كان لابي عبد الله محمد الشيخ اعتناء بالعلم في صغره ، فأخذ عن جماعة حتي بلغ في المعرفة درجة الرسوخ والشيوخ زيادة على نشأته الطاهرة في العفاف والصيانة . ولما استقل بالملك صرف عزمه لجهاد العدو المخيم بالثغور والحصون . وأرهف حده لتطهير الاقطار السوسية العزيزة بعزيمة ماضية وشهامة غريبة ، وأصبحت له اليد البيضاء في الاسلام ،

ففتح حصن النصارى بالسوس ـ فونتي [١] بعد ما داموا بـه ٧٢ سنة كما فتحوا غيرها . وكان منصوراً بالرعب لغاية تركوا له معها آسفي ، وآزمور وآصيلا من غـير قتال . ومن مـآثره الخـالدة اختطاطه مرسى آكدير التي تدل على فراسته الصائبة ، وحذقه الممتاز وذلك سنة ٩٤٧ـ ١٥٤٠ .

محمد الشيخ يستولي على مراكش وتجدد له البيعة

بعد قبض ابي عبد الله الشيخ على اخيه ، واستقلالـه بالملك ثابر على محاربة العدو بالبلاد السوسية الى أن قضى عليه ، في هذا الظرف كان المراكشيون يقدمون رجلاً ويؤخرون أُخرى في بيعته (اتقاء الوطاسيين) واستمر الحال كذلك الى سنة ٩٥١ـ ١٥٤٤ فيها انقادوا لطاعته وبايعوه . وخلص له وقتئذ جميع ما كان بيد اخيه المخلوع [٢] .

نهوض محمد الشيخ لحرب بني وطاس

عقب استيلاء الامير ابي عبدالله الشيخ على مراكش : طمحت

---

١) هو على مقربة من آكادير فتح سنة ٩٤٧ كما في النزهة . وآسفي سنة ٩٤٨ كما في المرآة ١٥٤٢ .

٢) من تادلا الى وادي نول .

نفسه لاضافة بقية البلاد المغربية اليها بقطع جرثومة الوطاسيين من سائر اقطاره ، وسرعان ما جمع الجموع وتقدم بها الى اعمال فاس وأخذ يفتح البلاد ، وكانت مكناسة الزيتون اول بلدة افتتحها إثر سنة ٩٥٥ ـ ١٥٤٨ (١) .

حصار ابي عبد الله محمد الشيخ فاساً واستيلاؤه عليها

قد ألح الامير محمد الشيخ على فاس بالقتال وحاصرها حصاراً طويلاً لم يرجع منه بطائل ، الامر الذي اضطره للبحث عن السبب العامل في فشله الظاهر . هناك أخبر بأن ظفره ببيعة اهل فاس معقود بناصية ابن الوانشريسي الفقيه ابي محمد عبد الواحد بن احمد الوانشريسي رحمه الله ، فلم يلبث الامير أن بعث اليه سراً ووعده ومناه ، فأجابه الشيخ عبد الواحد قائلاً : ان بيعة ابي العباس الوطاسي في رقبتي ولا يحل لي خلعها الا لموجب شرعي ، وهو غير موجود ، فكان هذا سبباً في قتله رحمه الله . وفي سنة ٩٥٦ ـ ١٥٤٩ (٢) دخل فاساً وقبض على الوطاسيين اجمعين و بعث بهم مصفدين الى مراكش عدا ابي حسون فانه فر الى الجزائر .

---

١) وقد سلفت الاشارة لذلك بالجزء الثالث .

٢) قتل في محاصرتها ولده الحران .

استيلاء ابي عبد الله الشيخ على تلمسان

لما فتح الامير الشيخ فاساً : تاقت نفسه الى الاستيلاء على المغرب الاوسط اذ كان يعز عليه استحواذ الاتراك عليه (وهم اجانب عن الاقليم) لا سيما وقد سقط لديهم عدو من اعدائه - ابو حسون ، فنهض من فاس قاصداً تلمسان ، وعند نزوله عليها حاصرها تسعة اشهر كانت النتيجة حسنة (١) فاستولى عليها سنة ٩٥٧ ونفى الترك عنها ، وانتشر حكمه في اعمالها الى وادي شلف ، لكن لم يتم ذلك حيث كرت عليه الاتراك ، وأخرجوه ، وعاد الى فاس ، ثم عاود غزوها ثاني مرة بيد انها امتنعت عليه .

امتحان ابي عبد الله الشيخ رجال التصوف وارباب الزوايا

في سنة ٩٥٨ - ١٥٥١ أمر السلطان ابو عبد الله بامتحان ارباب الزوايا ، والمتصدرين المشيخة (خوفاً على ملكه منهم) لما كان للعامة فيهم من الاعتقاد والوقوف عند اشاراتهم ، والتعبد بما يتأولون من العبارات حتى ان اباه القائم ما ولج باب الولاية

---

١) والذي اعانه على الفتح وبشره به قبل : هو الشيخ ابو الرواين وكان هذا شأن رجال الدولة السعدية اذا نابهم امر التجأوا لاهل الصلاح من ارباب التصوف والاحوال - وما سبب نشوء الدولة عنك ببعيد . نعم ليس هذا من شأن احرار العزائم وابطال الرجال ه مؤلف .

الا من طريقهم . فامتحن جماعة من اهل الزوايا والنسبة كـ (الشيخ ابي محمد الكوش) فأخلى زاويته بمراكش ، وأمر برحيله الى فاس . وكان ابو عبد الله الشيخ يطالب هؤلاء الصوفية بودائع بني مرين ويتهمهم بها .

ورود ابي حسون الوطاسي على فاس بجيش الترك واستيلاؤه عليها

علمنا ان ابا حسون فر الى الجزائر عند ما استولى الشيخ على فاس وقبض على الوطاسيين . ولم يزل ابو حسون يتحين الفرص الى ان سنحت له فقدم بجيش الترك فاساً مع باشاهم (صالح التركاني) واستولى عليها سنة ٩٦١ - ١٥٥٤ ، ونفى ابا عبد الله الشيخ عنها . لكنه منذ فر لمراكش وعزمه مصروف لقتال ابي حسون ، وفعلاً نفذ ما كان يدور بخلده ، وزحف اليه في جيوش وافرة ، ودارت بين الفريقين حرب كان الظفر فيها لجانب الشيخ ، فأودى بابي حسون واستولى على فاس ، وذلك في شوال من السنة (١) .

---

١) وفي الدوحة : ان دخول ابي حسون لفاس كان سنة ٩٦٠ وعود الامير الشيخ اليها كان في ذي القعدة نفس السنة وبعد ما استولى الشيخ على فاس قتل فقيهين جليلين ابا محمد عبد الوهاب الزقاق والشيخ ابا علي حرزوز المكناسي في ذي القعدة سنة ٩٦١.

اكتساب السعديين الحضارة والنظام

تأنق ملك السعديين على يد (رجل وامرأة) . فالرجل (قاسم الزرهوني) الذي رتب للامير ابي عبد الله الشيخ هيأة الامراء في ملابسهم ، ودخولهم ، وخروجهم ، وآداب اصحابهم . والمرأة العريفة بنت خجو ، فانها علمت الامير سيرة الملوك في منازلهم ، وحالاتهم في الطعام واللباس ، وعاداتهم مع النساء وغير ذلك فاكتسى ملك الشيخ بذلك طلاوة وازداد في عيون العامة رونقاً وحلاوة ، حيث جرى على العوائد الحضرية (١) وأثر مآثر منها تأسيسه جسر وادي سبو ، ووادي ام الربيع ، ومنها بناؤه حصن اكادير كما علمت (٢) .

الخراج المسمى في لسان العامة بالنائبة ـ الضريبة

اول من وظف الخراج على ارض المغرب (٣) : عبد المؤمن ابن علي ، وتبعه بنوه على ذلك ، وقفا طريقتهم بنو مرين

١) ه من اليفرني باختصار .

٢) من المنتقى المقصور والذي عند اليفرني في اول دولة المنصور الآتية : إن الذي أسس جسر وادي ام الربيع هي الحرة مسعودة ام المنصور نقلا عن المنتقى ايضا . ويظهر ان لا إشكال بين القولين بان يحمل عمل الشيخ على التأسيس لاول مرة وعمل الحرة مسعودة على التجديد .

٣) بناء على انها فتحت عنوة .

(والظهير الذي كتبه السلطان ابو زيان المريني لابن الخطيب ايام مقامه بسلا يشهد بذلك) ونهج الشيخ السعدي نهج سابقيه بل شدد حتى لم ينزه عنه شريفاً ولا مشروفاً (١) .

مراسلة السلطان سليمان العثماني للامير ابي عبد الله الشيخ

قدم ابو عبد الله الخروبي من لدن اميره العثماني ساعياً في الهدنة لكنه لم يحصل على نتيجة بل كان ابو عبد الله الشيخ يقول : على ما زعموا لا بد لي ان أغزو مصر واخرج الترك من احجارها وكان يرسل لسانه في الحط من عاهل آل عثمان ويسميه سلطان (الحواتة) حيث ان الاتراك كانوا اصحاب اساطيل وسفر في البحر (٢) فلم يلبث هذا الاقذاع المر ان بلغ الخليفة العثماني ، فبعث اليه رسله (٣) اما السفير الخروبي فرجع مذعوراً لسلطانه .

اغتيال طائفة من رجال الترك لابي عبد الله الشيخ

عندما اخبر الامير العثماني باغلاظ الشيخ ، واهتمامه بغزوه ،

---

١) وعلى هذا يتمشى ما في النزهة ان ابا عبد الله اول من احدث النائبة بالمغرب .

٢) بل نحن نعد هـذا من المزايا الدالة على البطولة والصرامـة اذا فهـو مدح على الحقيقة المتصادمة واعتقاد القائل .

٣) كما في نزهة الحادي

وانتزاع ارض النيل من يـده ، اهتم ببعث جحافله لحرب سلطان المغرب ، بيد ان اهل الديوان قر رأيهم على ارتكاب الحيلة وهي : اتفاقهم على تعيين ١٢ رجلاً من فتاك الاتراك يبعثون لهذه المهمة ، وفعلاً هيؤوهم و بذلوا لهم ١٢ الف دينار ، وكتبوا لهم رسالة الى صالح الكاهية كبير جيش الاتراك الذين قدموا مع ابي حسون ، ووعدوه بالمال والمنصب ان هو نصح في اغتيال الشيخ وتوجيه رأسه مع القادمين . و بعدما عرضوا الفكرة على سلطانهم واستحسنها : أذن لهم في تنفيذها ، فقدموا المغرب في هيأة التجار .

بلوغ طائفة من الاتراك لمراكش

وعند بلوغهم مراكش اجتمعوا بصالح الكاهية ، وانزلهم عنده ، ودبر الحيلة ، ثم قدمهم الى الامير قائلاً له : إن جماعة اعيان من جند الجزائر سمعوا بمقـامنـا عندك ، فرغبوا في جوارك والتشرف بخدمتك ، فامره بادخالهم ، فلما مثلوا بين يديه رأى وجوهاً حساناً فاحسن مقابلتهم ، وامر الكاهية باكرامهم ، واستمر الحال كذلك الى ان امكنتهم الفرصة فيه وهو في بعض حركاته بجبل درن [1] فولجوا عليه خباءه ليلاً ، وضربوا عنقه (بشاكور) [2] ضربة

---

١) بموضع يعرف بآكلكال بظاهر تارودانت .

٢) هنا تذكر مقالة الفقيه عبد الوهاب الزقاق لما قال له الشيخ اختر بما تموت به.

ابانوا بها رأسه ، واحتملوه في مخلاة (١) وفروا . نعم ادركهم الناس وقتلوا البعض منهم .

ما نشأ عن اغتيال ابي عبد الله الشيخ

ولما شاع خبر اغتيال محمد الشيخ : استراب الناس بجميع الاتراك الذين بقوا بالمغرب . وحينما احسوا بذلك ، واغلق الذين بـ (تارودانت) ابوابها . واقتسموا الاموال ، واستعدوا للحصار . اثناء هذا بويع الغالب بن ابي عبد الله الشيخ وسرعان ما هيأ جنوداً سار بها نحو (تارودانت) للاخذ بثأر ابيه من الترك . فحاصرهم مدة ما انجح فيها . اذ ذاك اعمل الحيلة مظهراً الرحلة عنهم ، ولما بعد مسيرة يوم خرجوا في اتباعه ليلاً ، والعيون موضوعة عليهم بكل جهة ، الى أن شارفوا محلة السلطان الغالب ، فعطف عليهم . ولم يستطيعوا العود الى (تارودانت) ، بل تحيزوا للجبل وتحصنوا به ، وأحاطت بهم الجنود ، فقاتلوا الى ان فنوا عن آخرهم ، ولم يؤخذ منهم اسير (٢) .

---

١) وعند وصول الرأس الى الصدر الاعظم ادخله على السلطان وحينما امر بجعله في شبكة نحاس وتعليقه على باب القلعة وبقي هناك الى ان شفع في انزاله ودفنه ابناه : عبد الملك واحمد المنصور حين قدما القسطنطينية على سليم بن سليمان .

٢) وقتل من محلة الغالب بالله ١٢٠٠ .

ثقافة ابي عبد الله الشيخ ونتفة من سيرته

كان ابو عبد الله الشيخ من رجال العلم والسياسة ، أخذ العلم عن جماعة حتى كان يخالف القضاة في الاحكام ويرد على الفقهاء فتاويهم ، فيجدون الصواب في انتقاده . وله حواش على التفسير. كان يحفظ القرآن الكريم ، وصحيح البخاري ، وكان في الادب آية الآيات ، احفظ للمقطعات الشعرية ، كثير الانشاد لقول الاديب :

الناس كالناس والايام واحـدة والدهر كالدهر (١) والدنيا لمن غلبا

بل كان يحفظ ديوان المتنبي عن ظهر قلب (٢) ومن مقالاته في الملك : ينبغي للملك ان يكون طويل الامل ، وان كان لا يحسن من غيره فهو منه صالح لان الرعية تصلح بطول امله .

زبدة الدرس ومحفوظته

علمت أن محمد الشيخ لما استقل بالملك اشتغل بجهاد العدو البرتغالي فقضى عليه . ثم استولى على حمراء الجنوب ، وجددت له البيعة ، عقب ذلك صرف عزمه لحرب الوطاسيين فقصدهم بفاس ،

---

١) والدنيا لمن غلبا ـ هذه التكملة لابي الطيب ضمنها الاديب في بيته ه .

٢) سبب عكوفه على ديوان المتنبي قوله :

غاض الوفاء فمـا تلقاه في عدة واعوز الصدق في الاخبار والقسم

ولذلك قصة انظرها بكتاب الاستقصا .

وبعد حصارها استولى عليها ثم على تلمسان سنة ٩٥٧ . وفي سنة ٩٥٨ لفت نظره لاهل الزوايا فضيق عليهم (خوفاً على ولايته) ثم راسلته الدولة العثمانية لكنه قابل سفيرها بغلظة ترتبت عن كونه يدعو لهم على منابر المغرب وذلك ما حفز الاتراك لحيلة الفتك به .

تمرين الدرس

١) في أي سنة استولى ابو عبد الله الشيخ على تلمسان ؟ وهل دام بها ام أخرجته الاتراك ؟

٢) بماذا اشتغل محمد الشيخ حين استقلاله بالملك ؟ ولأي شيء صرف عزمه لما استولى على مراكش ؟ متى توجه لامتحان ارباب الزوايا وما السبب في ذلك ؟ اذكر قضية رجوع ابي حسون الى فاس، وماذا كانت النتيجة ؟ وهل تذكر سبب اغلاظ ابي عبد الله الشيخ على السفير العثماني وما كان المآل بعد ؟ وهل تعلم شيئاً عن ثقافته وسيرته ؟.

الدرس الثالث

دولة ابي محمد عبد الله الغالب بالله

ولد الغالب بالله في رمضان سنة ٩٣٣ - ١٤٢٦ ونشأ في عفاف وصيانة ، وحفظ القرآن ، واخذ بحظ صالح من العلم ، وكان ولي عهد ابيه ، ولما وافته الانباء بمقتل ابيه وهو بفاس :

بايعه اهلها ، وما تخلف احد عن بيعته وعندما بلغ ذلك اهل مراكش وافقوا على البيعة ، وفوراً استوثق له الامر وتمهد له ملك ابيه سنة ٩٦٥ - ١٥٥٧ .

حسن بن خير الدين التركي يطمع في تملك المغرب

لما ولي الامير الغالب بالله الخلافة اشتغل بتنظيم ما بيده وتحصينه ، ولم تطمح نفسه في الزيادة على ما ملك ابوه .

وفي سنة ٩٦٥ غزاه حسن بن خير الدين التركي - صاحب تلمسان . فخرج اليه الغالب السعدي ، والتحمت المعركة بين الفريقين ، كانت الدبرة فيها على التركي فرجع منهزماً يتعلق بصياصي الجبال . اما الغالب بالله فعاد الى فاس ولم يدخلها لوباء (١) كان بها وقتئذ ، ثم امر بقتل اخيه عثمان لامر نقمه عليه .

تأسيس جامع المواسين بمراكش والسقاية المتصلة به والمارستان

كان للامير الغالب بالله اعتناء زائد بالتأسيس والتخليد للبنايات الضخمة ، من ذلك تأسيسه جامع المواسين (٢) والسقاية المجاورة

---

١) قيل بلغ عدد الموتى في يوم واحد ٩٩٠٠ انظر ترجمان ابي القاسم .

٢) كان اهل الورع يجتنبون الصلاة فيه بعد ما بني مدة ويقال ان بقعته كانت مقبرة لليهود .

له ، والمارستان الذي بحومة الطالعة بحارة قرب السجن [١] وهو ايضاً الذي جـدد مدرسة جامـع ابن يوسف لا انه اسسها بـل مؤسسها ابو الحسن المريني [٢] .

فتح مدينة شفشاون وانقراض امر بني راشد منها

علمت ان مؤسس شفشاون بنو راشد من شرفاء العلم ، وكانوا اهل جهاد ومرابطة على العدو ببلاد غمارة والهبط . الى ان حاصرهم وزير الغالب بالله [٣] ولما اشتد على اميرهم الحصار خرج في اقاربه يوم الجمعة ٢ صفر سنة ٩٦٩ ـ ١٥٦١ قاصداً المدينة المنورة .

حصار البريجة ـ الجديدة

هذه المدينة اسسها البرتغال ، وكانت غارات المجاورين لها من المسلمين لا تنقطع عنها ، ولدى سنة ٩٦٩ جهز اليها الخليفة الغالب جيشاً كثيفاً ، وعقد عليه لابنه محمد المعروف بالمسلوخ ، قتيل وادي المخازن ، واستوزر له القائـد المجاهد الشاعر عبد الرحمن بن تودة

---

١) وقد اتخذ اليوم سجنا للنساء ه من الاستقصا .

٢) كما برحلة ابن بطوطة .

٣) الامير الفاضل ابو عبد الله محمد ابن الامير ابي الحسن بن موسى بن راشد ه من المرآة باختصار

العمراني فحاصرها ٦٤ يوماً وملك بعض اسوارها ولم تفتح له (١).

احتيال النصارى بمكيدة البارود بجامع المنصور من مراكش

في سنة ٩٨١ - ١٥٧٥ احتال جماعة من اسرى النصارى الذين بقوا ثمة من ايام ابي العباس الاعرج ، واخيه الشيخ ، حيث رأوا الجم الغفير من اعيان الامة واهل الدولة يحضرون الجمعة مع السلطان بالجامع فحدثتهم طويتهم الخبيثة ان يصنعوا مكيدة يهلكون بها الخليفة ومن معه . فحفروا خفية تحت الجامع ما ملؤوه باروداً ، ووضعوا فيها فتيلاً تسري فيه النار على مهل كي ينقلب الجامع باهله وقت الصلاة ، فنفطت المينا ، وانهدت القبة الواسعة من الجامع ، وانشق مناره ، وكان ذلك مبلغ مكيدتهم .

وفاة السلطان ابي محمد عبد الله الغالب بالله

توفي الغالب بالله يوم الجمعة ٢٨ رمضان سنة ٩٨١ - ١٥٧٥ بسبب غم كان يعتريه .

سيرة الغالب بالله ونبذة من اخباره

كان الخليفة الغالب بالله ذا سياسة وخبرة باحوال الملك ، وتأن

---

١) انظر الاستقصا فقد اطال ابو العباس النفس ها هنا اذ جلب ما كتبه الوزير مارية المؤرخ ثم قسم اعمال المغرب على ابنائه كما في الترجمان.

في شؤونه ، فعند جلوسه على منصة الولاية سار في الامـة سيرة حسنة ، صلحت من جرائها الرعية ، وانتعش الشعب و بهذا ونوعه تستطيع الاستدلال على تكذيب ما يشاع عنه : انه تنازل للطاغية عن حجر باديس لتنقطع مادة الترك عنه فـان ذلك كغيره من الاراجيف الزائفة ـ التي عثر عليها في اوراق مجهولة المؤلف (١) .

زبدة الدرس ومحفوظته

اشتغل الغالب بالله بتحصين ملكه مقتصراً على دائرة ابيه ، وفي سنة ٩٦٥ غزاه حسن التركي لكنه خاب في محاولته وكان للغالب ولوع وشغف بتخليد المؤسسات كجامع حارة المواسين ، والمارستان ، ومن فتوحاته مدينة شفشاون . وفي سنة ٩٨١ احتال النصارى بوضع البارود تحت ارض جـامـع المنصور قصد اهـلاك المسلمين ، بيد ان حيلتهم لم تنجح ، وفي السنة المذكورة قضى الغالب بالله نحبه .

---

١) اشتملت على ذم هذه الدولة ويظهر انها من وضع بعض اعدائهم ه من النزهـــة وقد كانت في ايامه حركة علمية ادبية تنبي مراجعها عن زهرة العصر ونهضتـه في العلوم والمعارف ولا بدع فهؤلاء ملوك الدولة كانوا اساطين المعرفـة والنبوغ فضلا عما طوقوا به من السياسة والادارة كما ترى والناس على دين ملوكهم .

تمرين الدرس

١)باي شيء اشتغل الغالب بالله لاول ملكه ؟ ومن غزاه من الاتراك؟ وهل نجح في محاولته ام خاب ؟ اذكر بعض فتوحاته.

٢) في أي سنة احتال النصارى على وضع البارود بجامع المنصور ؟ متى توفي الغالب بالله ؟

الدرس الرابع

خبر السلطان المتوكل على الله بن الغالب بالله

لما توفي السلطان الغالب بالله بمراكش كان ابنه محمد ولي عهده بفاس فبايعه اهل فاس ومراكش . وتم امره . والمتوكل هذا يعرف عند العامة بالمسلوخ [١] وقع في ايامه سنة ٩٨٢-١٥٧٤ وقعة بين المسلمين ونصارى طنجة التي استشهد فيها - الشيخ ابو مهدي عيسى بن حسن المصباحي . ثم استمر امر المتوكل منتظماً الى اواخر سنة ٩٨٣ في هذا التاريخ قدم عليه عمه عبد الملك بن الشيخ بجيش الترك و بدد ملكه .

اضمار المتوكل الفتك بعميه: المنصور وعبد الملك

يقال إن المتوكل على الله كان مضمراً الفتك بعميه احمد

---

١) سلخ جلده وحشي تبنا .

وعبد الملك ففرا منه الى ناحية .الترك كان محمد المسلوخ فقيهاً اديباً مشاركاً ، قوي العارضة في النظم والنثر ، لكنه كان يميل للتكبر والتيه ، عسوفاً على الرعية ، غير متوقف في الدماء . ومن شعره :

فقم بنا نصطبح صهباء صافية في وجهها عسجد في وجهه نقط
وانهض اليها على رغم العدا قلقاً فان تأخير اوقات الصبا غلط

وحياة المتوكل هذه ليس فيها ما يلفت النظر كما ترى .

دولة الامير ابي مروان بن الشيخ السعدي

ان عبد الملك بن الشيخ ، وأخاه احمد كانا اولا بسجلماسة ، فلما توفي ابوهما ، وولي الأمر أخوهما الغالب بالله لحقا بتلمسان ، فأقاما بها مدة ، ثم انتقلا الى الجزائر ، وعندما اتصل بهما خبر وفاة اخيهما الغالب بالله ، وولاية ابنه محمد المتوكل : ركب ابومروان البحر يريد القسطنطينية . قصد طلب المدد من خليفتها العثماني . وفعلاً تطارح عليه كي يمده بجيش يتوصل به لملك المغرب ، هناك تثاقل عنه العثماني الى أن كانت غزاة تونس التي حضرها عبد الملك وأخوه وإثر فتحها الواقع سنة ٩٨٢ أتيا في جملة من حملوا كتاب الفتح ، غير أن البحر هاج وفرق المركبين .

الحظ نعمة جليلة

هناك ساعد الحظ عبد الملك وأخاه احمد فوصلا القسطنطينية قبل المركبين بثلاث ، فأخبرا بفتح تونس . وكانت هاته البشارة سبباً في اسعاف الخليفة سليم عبد الملك بجيش من ٥٠٠٠ قدم به المغرب ، وهزم المتوكل على الله ، فأجفل الى مراكش . ودخل ابو مروان فاسا منصوراً ، وبايعه اهلها . اثناء هذا عزم لابن اخيه قصد تشريده عنها ، ووقتئذ طالبه جحفل الترك بالسلف والوفاء بما بينهم من الشروط (١) فوفى لهم عبد الملك ، اذ استسلف مالا طائلاً من اهل فاس .

نهوض الملك ابي مروان الى مراكش وفرار ابن اخيه الى السوس

ثم ان الامير ابا مروان نهض من فاس وتقدم الى مراكش ، لكن ابن اخيه عند ما سمع بخروجه اليه تهيأ للقائه فالتقى الجمعان بموضع (بخندق الريحان) على مقربة من وادي شراط ، فكانت الهزيمة على المتوكل ايضاً ففر وتبعه احمد المنصور . وحين سمع المتوكل باتباعه الى مراكش فر عنها الى جبل درن ، وأسلم له

١) اذ ما اتوا معه الا على شروط شرطوها عليه مع مال قدموه اليه سلفا .

مراكش ، فدخلها ، واخذ البيعة لاخيه ثم لحق به الخليفة ابو مروان في ١٩ ربيع الثاني سنة ٩٣٤ ـ ١٥٧٦ . أما خبر المتوكل فعمي على ابي مروان .

استخلاف ابي مروان اخاه ابا العباس على فاس

حينما استقر امر ابي مروان بمراكش وانقطع خبر المتوكل ، تقدم اليه اخوه احمد يسأله الخلافة على فاس . فأجابه لذلك . ثم بعد مدة كتب اليه كتاباً يستنهضه فيه ، وعيب عليه تراخيه ، وعدم مد اهل العرائش بالمؤونة والبارود والرصاص حيث لا يستقيم لهم امر في مقاومة العدو دون ذلك (١) .

ظهور المتوكل بالسوس واتيانه مراكش

بعدما فر المتوكل من مراكش أصبح يجول في جبل السوس ، وينتقل في قبائلها واحيائها الى ان اجتمعت عليه طائفة وتأشب اليه ما يشبه ان يكون جيشاً ، وأتى بهم مراكش . وحالا برز اليه ابو مروان ، فخالفه المتوكل ودخلها باتفاق من اهلها ، فبايعوه لكنه لم يتمكن من القصبة : فبلغ ذلك الامير عبد الملك فحاصر مراكش وكتب لاخيه المنصور بفاس : ان أقبل ، فأتى مسرعاً في جحفل

---

١) انظر الرسالة بنصها في كتاب الاستقصا .

فاسي هناك أسلم المتوكل شيعته ، وفر الى السوس . فتبعه احمد المنصور ودخل ابو مروان مراكش .

وقعة وادي المخازن من بلاد الهبط

سبب هذه الغزوة الهائلة : ان الامير المخلوع ابا عبد الله محمد ابن عبدالله السعدي لما دخل طنجة ـ ام طاغية البرتغال (سبستيان) وتطارح عليه راجياً منه الاعانة على استرجاع ملكه ، فأشكاه الطاغية (وصادف منه شرَهاً الى تملك المغرب وسواحله) . وسرعان ما شرط عليه أن تكون السواحل له وللمسلمين ما وراء ذلك . فقبل ابو عبد الله ذلك والتزمه . وللحين جمع الطاغية جموعه وعزم على الخروج لبلاد الاسلام (١) .

قوة الاعداء

بلغ عدد جيش الطاغية ١٢٥٠٠٠ . (٢) وكان مع محمد بن عبد الله ٣٠٠ من اصحابه قالوا : وكان عدد الانفاض التي يجرونها مائتين اذ قصدوا إهلاك المغرب ، وحصد المسلمين وادارة رحا

---

١) وقد تواتر في تواريخ الافرنج ان كبار دولته حذروه عاقبة هذا الخروج ونهوه عن التغرير ببيضة البرتغال وتوريطها في بلاد المغرب فصم عن سماع ذلك ه من الاستقصا باختصار .

٢) ه من المنتقى المقصور .

الهوان على الدين . اما عسكر المسلمين فلم يكن الا نحو ٤٠ الفاً . وعند خروج الجيش كتب محمد رسالة لاعيان المغرب من علماء وأشراف يتوعدهم لنكث بيعته ونقضها ، ومبايعة عمه من غير موجب شرعي الى ان قال : وقد قال العلماء انه يجوز للانسان ان يستعين على من غصبه حقه بكل ما امكنه . فأجابه علماء الاسلام عن رسالته باخرى دامغة لتخرصاته الباطلة ، فاضحة لركيك تأويله — رسالة تستحق الكتب بسواد العيون ، بل تستلزم تجريدها على حدة ودرس فصولها الممتعة (١) .

خروج محمد بن عبد الله بجيش البرتغال من طنجة

خرج هذا الجيش الكثيف في ربيع الثاني سنة ٩٨٦ — ١٤ غشت ١٥٧٨ ، فحصل للمسلمين ما حصل اذ بلغ العدو مدينة القصر . أما آصيلي فقد تصيرت اليه قبل باشهر . في هذه الظروف الضيقة كان الامير ابو مروان بمراكش ، واستبطأ الناس وصول شكايتهم اليه ، وبعث قوته ، واصبحوا يرون التعلق برؤوس الجبال أقرب للنجاة (٢) .

---

١) انظر الرسالة وجوابها القيم بالنزهة .

٢) اذ سكنهم ابو المحاسن يوسف الفاسي رحمه الله وكان اذ ذاك بالقصر فامرهم بالزام دورهم وبلادهم .

رسالة أبي مروان الى الطاغية

كتب ابو مروان الى رئيس البرتغال يقول له : ان سطوتك قد ظهرت في خروجك من ارضك ، وجوازك العدوة ـ فان ثبتّ الى ان نقدم عليك فانت نصراني حقيقي شجاع والا فأنت كلب ابن كلب ، فلما بلغه الكتاب غضب ، و بعد استشارة اصحابه قال له محمد : الرأي أن تتقدم وتملك تطاوين والعرائش ، والقصر ، وتجمع ما فيها من العدة والقوة ، فاعجب ذلك الرأي اهل الديوان ، ولم يعجب الطاغية .

كتاب من أبي مروان لاخيه المنصور

ثم كتب الامير ابو مروان لاخيه ابي العباس المنصور ـ نائبه بفاس واعمالها : ان يخرج بجيوش اهل فاس واحوازها و يتهيأ للقتال . ثم حبر رسالة اخرى للطاغية بعد وصوله للقصر فحواها : اني رحلت اليك ١٦ مرحلة (١) أما ترحل الي واحدة . فرحل الطاغية من تاهدارت ونزل على وادي المخازن بمقربة من قصر كتامة (٢) .

---

١) المرحله : المسافة التي يقطعها المسافر في نحو يوم هـ . وتقدر هاته المسافـة اليوم بنحو ٩٠ كيلو متر .

٢) وكان ذلك من السلطان ابي مروان مكيدة .

اشتعال نار الحرب بين الفريقين

عقب هـذا تقدم الطاغية بقوته ، وعـبر الوادي . وحينا أمر ابو مروان بالقنطرة ان تهدم فهدمت ، وكان الوادي لا مشرع له سوى القنطرة ، ثم زحف الخليفة ابو مروان الى العدو برجال المسلمين ، وكل من اقبل منهم راغباً في الاجر والشهادة ، وحضور هذا المشهد الجليل ، وكان من جملة الحاضرين : الشيخ ابو المحاسن يوسف الفاسي (١) فما هي الا لحظة حتى حمـل العدو الـكافر على المسلمين . فثبتوا لغاية منحهم الله معها النصر الباهر ، وركـبوا اكتاف العدو ـ يقتلون ويأسرون . اما ابو مروان فوقتما حمي الوطيس ، واسود الجو بالنقع ودخـان المدافع ، توفي عند الصدمة الاولى . وكان من لطف الله ـ أن لم يطلع على وفاته احد سوى حاجبه رضوان (٢) العلج ، فكتم موته ، وأخذ يختلف الى الاجناد ويقول : السلطان يأمر فلاناً الى ان يذهب الى موضع كذا ، وفلاناً ان يلزم الراية ، وهذا يتقـدم والآخر يتأخر . وحصل

---

١) ومن الحاضرين في المعركة ابو عبد الله محمد بن عسكر الشفشاوني صاحب الدوحة غير انه كان في جانب العدو وقد عيب عليه والتمس بعض الكتاب له العذر .

٢) ه من المرآة ..

المسلمون على الانتصار الباهر ، والغنيمة الفاخرة التي لم يشاهد لها نظير بالمغرب قط . وقتل في المعركة الرئيس سبستيان ، وعثر على محمد بن عبد الله ميتاً بالوادي (١) .

بقية اخبار ابي مروان

مات عبد الملك مسموماً على يد قائد الترك ـ في كعك قدم اليه هدية . وبعد وفاته حمل لمراكش فأقبر بها ، وكانت مدة خلافته ٤ سنين ، وكان يتزيا بزي الترك ، ويجري مجراهم في كثير من شؤونه .

زبدة الدرس ومحفوظته

ايام ابي عبد الله بن الغالب بالله فارغة لا ما يذكر عدا قلاقل وفتن ، لذلك لم يطل في الامارة حيث انتزعها منه عمه ـ ابو مروان ، ووراء ذلك اسباب علمتها ، ثم استخلف اخاه ابا العباس بفاس . وفي سنة ٩٨٦ كانت وقعة وادي المخازن الشهيرة التي حصل للمسلمين فيها الانتصار الباهر (هلك فيها ملوك ثلاثة) وانتصر رابع . وحضرها من علماء الاسلام وصلحائه جم غفير .

---

١) فانظر لهذه الحكمة هلاك ثلاثة ملوك في يوم واحد ـ ابو مروان وولد اخيه محمد بن عبد الله والطاغية سبستيان واقام واحد : ابو العباس المنصور ه من درة الحجال

تمرين الدرس

من خلف الامير الغالب بالله على الملك ؟ ومن انتزع منه ملكه ؟ وماذا نشأ عن الخلاف الحاصل بين ابي مروان وابن اخيه ؟ هـل تعلم سبب موت ابي مروان واين مات ؟ اذكر سبب جلوس ابي مروان على سرير الملك .

هل تذكر ما حصل بين ابى مروان وابن اخيه محمد المتوكل : اكتب عن وقعة وادي المخازن كل ما علق بذهنك .

الدرس الخامس

دولة ابي العباس احمد المنصور المعروف : (الذهبي)

ولد ابو العباس المنصور بفـاس سنة ٩٥٦ . أمـه هي الحرة مسعودة بنت الشيخ احمـد بن عبد الله الوزكيتي ، كانت من الصالحات ، ونشأ المنصور في عز وعفاف ، وتعاطى للعـلم ومزاحمة اهله . بويع بالخلافة بعد وقعة وادي المخازن يوم الاثنـين منسلخ جمادى الاولى سنة ٩٨٦ . وعند دخوله فاساً جددت له البيعـة ، واسرع رجال المغرب لطاعته . واصبحت الوفود ترد عليه من اصقاع المغرب والهدايا من اوربة وغيرها تنهال عليه بنفيس الاثاث ورفيع الذخائر .

ترشيح المنصور ابنه - محمد الشيخ الملقب بالمأمون لولاية العهد

كان المنصور قد مرض مرضاً مخوفاً كادت الادارة تختل ولكن الله سلم إذ عوفي . في هذا الوقت طلب اعيان الدولة بوساطة القائد المؤمن بن الغازي العمري من المنصور ان يعقد ولاية العهد لابنه المأمون . إذ ذاك بقي يستخير ربه ، ويستشير ذوي الاهليـة من رجال العلم والصلاح ، وبعدئذ جمع اعيان امته ، واوصى بالعهـد لولده ، وكان خليفته على فاس ، فلم يحضر . وبعد هذا بعث اليه كي يحضر ويشاهد البيعة وفعلاً حضر في مهرجان عظيم سنة ٩٨٩ وأخذت له البيعة .

ثورة داود بن عبد المؤمن بن محمد الشيخ

لما تم امر البيعة للمأمون ثار الرئيس داود بن عبد المؤمن ابن اخي المنصور ، وفر الى جبل سكسيوة ، وشق العصا ودعا لنفسه ، فانثالت عليه اوشاب من البربر وغيرهم من مستغلي الفتن فلم يلبث المنصور ان بعث اليه قائده الزعيم ابا عبد الله محمد بن ابراهيم بن بجة فهزمه ، وفر عن سكسيوة الى هوزالة ، وكان آخر محاولاته - استقراره بالصحراء عند عرب الودايا من بني معقل ، وعندهم هلك سنة ٩٨٨ - ١٥٨٠ .

حصول النفرة بين المنصور والسلطان مراد العثماني

حين ملك المنصور امر المغرب ، وكتب الى النواحي بخبر وقعة وادي المخازن : كتب الى السلطان مراد في جملتهم . وحالا بعث اليه هذا بهدية ، لكن المنصور استقلها ، ولم يكترث للوفد بل تركه مهملاً ، وتأخر عن جواب الامير مراد . فكان ذلك سبباً للنفرة ، وخلق البغضاء . اثناء هذا هيأ العاهل العثماني العمارة قصد القضاء على المنصور ، وسرعان ما بلغه ذلك ، فاستعد . ثم بادر ببعث هدية ثمينة تلافياً لما فرط واعتذاراً ، فصادف ذلك من الخليفة العثماني قبولا واستحساناً .

استيلاء المنصور على الصحراء - تبكورارين وتوات وغيرهما

اهل هذه البلاد كانوا احراراً لا تنالهم ايدي الملوك منذ عهد طويل . وذلك ما دعا المنصور للتفكير في شأنهم . و بعيد هذا كانت النتيجة : ان هيأ اليهم قوته المنصورة وقطعت القفر من مراكش الى ان انتهت اليهم سبعين مرحلة . فأخذ رجال علي المنصور يأخذون اولئك الصحراويين بالدعاء للطاعة . لكنهم اعلنوا بالامتناع . وحيناً نازلوهم واوقعوا بهم الى ان أذعنوا للطاعة ، وانخرطوا في حزب الجماعة . ثم أنهى خبر الفتح للمنصور فسر

سروراً زائداً وذلك سنة ٩٩٠ ـ ١٥٨٢ .

هدية صاحب برنو من اهل السودان الى المنصور

كان المنصور السعدي محظوظ الجانب ـ من ذلك مهاداة صاحب مملكة برنو ومخاطبته له حتى كان ذلك سبباً في مبايعته له سنة ٩٩٠ . وفي ضمن الرسالة التي أنفذها هذا الملك : طلب المدد من الخليفة المنصور ـ بالعساكر والاجناد وعدة البنادق ، ومدافع النار لمجاهدة من يليهم بقاصية السودان من الكفار (١) وبعدما فهم المنصور الحقيقة التي كانت غامضة قبل : صدع له بالحق والدعاء الى التي هي اقوم ـ بالبيعة له ، وأن كل ما يحاولونه من امر الجهاد موكول فرضه لطاعة الامام وإذنه إذ ذاك طلب الرسول نسخة من البيعة يصحبها لاميره حيث لا يوجد من يحسن الانشاء ببلادهم ، فأجابه المنصور ، وامر كاتبه القشتالي فأنشأها (٢).

ارسال المنصور رسوله بالدعوة لآل سكية

بعث المنصور السعدي الى السلطان اسحق ـ من آل سكية

---

١) كان هذا الرسول بعث قبل في هذا الصدد لسلطان الترك ـ مراد العثماني فاخفق سعيه .

٢) انظر نصها بكتاب الاستقصا والمنصور ما استطاع مجابهة الامير السوداني الا بعد ان استفتى علماء ايالته واشياخ الفتيا بها فافتوه بذلك .

صاحب مملكه (كاغو) من ارض السلطان : رسالة يأمره فيها : ان يرتب على معدن الملح الذي بتغازي بين المغرب والسودان وظيفاً ـ بان يجعل على كل من يحمل منه شيئاً من الواردين عليه مثقالا (١) من الذهب العين لكل حمل . تستعين به عساكر المسلمين على جهاد الكفار . و بعد بلوغ الرسالة لاسحق سكية شق عليه ذلك . وماطل في الجواب ، وفوراً تفطن المنصور لتمرد الامير فاشتد غضبه ، وعزم على توجيه العساكر للسودان . وكان ذلك احد الاسباب التي حفزت المنصور لقصد تلك البلاد وتدويخها .

مشاورة المنصور اعيان دولته في غزو آل سكية

حين آبت رسل المنصور من لدن اسحق سكية ، وأعلموه بمقالته وامتناعه بحجة ـ انه امير ناحية ، والمنصور امير ناحية ، وانه لا تجب طاعته عليه : شاور اعيان دولته ، وكشف عن عزمه . و بعد ما عارضوه محتجين عليه ببعد الشقة ، و بأن من سبقه من الدول لم يطمح لفتح تلك البلاد ، و بعد إبداء رأيهم في القضية : شرح لهم ما وراء عزمه من السعادة للشعب المغربي . وأبطل كل ما أدلوا به من الحجج ببراهين دامغة (٢) . وسرعان ما استحسن

---

١) المثقال وزنه درهم وثلاثة اسباع درهم وكل سبعة مثاقيل عشرة دراهم ه مص .

٢) ولا بدع فانه السائس الاكبر ـ المنصور الذهبي .

الحاضرون جوابه واستجادوا رأيه (عقول الملوك ملوك العقول) .

تجديد المنصور البيعة لابنه المأمون

لدى سنة ٩٩٢ جدد المنصور البيعة لولده محمد الشيخ الملقب بالمأمون ، وأخذه على إخوته خصوصاً لانهم كانوا في البيعة الاولى صغاراً دون بلوغ ، فأراد ان يستوثق له منهم بعد البلوغ (حسما للنزاع بعد) . ولما فرغ من ذلك رأى ان يرشح كل اولاده للامارة ، ويقسم بينهم البلاد حتى لا تبقى في انفسهم إحن[1] .

ثورة الحاج قرقوش ببلاد غمارة ومقتله

في سنة ٩٩٣ ثار رجل يقال له الحاج قرقوش بجبال غمارة وبلاد الهبط ، وتسمى بأمير المومنين ، وكان في ابتداء امره حائكا فأظهر الزهد والصلاح ، واعتقده العامة ، الى ان كان ما ذكر . بيد انه خاب فأخذ وقتل ، وحمل رأسه الى مراكش .

تأسيس جامع باب دكالة بمراكش

كانت الحرة مسعودة الوزكيتية – ام المنصور حريصة على

---

١) وهي سياسة خائرة تذكرك مثالها وقتما ارتكبها محمد بن ادريس الازهر حيث وزع ادارة المغرب بين اخوته .

انشاء المفاخر ، من ذلك إنشاء المسجد الجامع بحومة بحارة باب دكالة ، ومن احسانها : أنها وقفت عليه اوقافاً عظيمة سنة ٩٩٥ ، قيل: (١) هي التي بنت جسر وادي ام الربيع وغير ذلك .

بعث المنصور بخصة (٢) الرخام الى جامع القرويين

في سنة ٩٩٦ _ ١٥٨٧ أرسل المنصور الخصة العظيمة الى كلية القرويين المحروسة ، مع كرسي من المرمر توضع عليه (وزنهما معاً) : مائة قنطار (٣) وفي السنة نفسها سافر المنصور الى فاس وبها وافته البشرى _ بالفتك بنصارى سبتة . وأن زعيم البعثة الجهادية _ المقدم أبا العباس النقسيس التطواني : كمن لهم مع جماعة من الفرسان ، وأوقع بهم وفي سنة ٩٩٧ _ ١٥٨٨ أخلى النصارى آصيلى خوفاً من كتيبة المسلمين المرابطة هنالك (٤) .

---

١) والقائل ابن القاضي في كتابه المنتقى المقصور .

٢) كثيرا ما يعبر المؤرخون هنا عن الخصة بـ (البيلة) وبعد البحث عنها في بعض المعاجم التي بايدينا لم نعثر عليها بل حتى الخصة نفسها لا توجد في اللغة ومثل ذلك الفسقية التي هي عبارة عن مجمع الماء واشتهرت في الاستعمال وعبارات الفقهاء قال الشهاب الخفاجي في شفاء الغليل ولا ادري له اصلا . والذي تساعد عليه اللغة الفوارة .

٣) وهي التي تحت منار الجامع هـ من المنتقى .

٤) كان في عصر رجال من بيوتات المغرب معروفون بالشجاعة والنجدة في محاربة الاعداء منهم اولاد النقسيس التطوانيون ومنهم اولاد ابي الليف من اهل بلاد الهبط هـ من الاستقصا .

زبدة الدرس ومحفوظته

بويع ابو العباس المنصور سنة ٩٨٦ ، وبعد ابلاله من مرضه رشح ولده المأمون لولاية العهد باشارة من اعيان الدولة . وقد حصلت نفرة بين المنصور ومراد العثماني ، بيد أن المنصور تدارك ذلك بحسن سياسته . واثناء هذا أخذت تدور بين المنصور وسلاطين السودان مخابرات في شأن بلادهم ، وذلك ما كان سبباً في فتحها ، وفي سنة ٩٩٥ أسست ام المنصور الحرة مسعودة جامع باب دكالة من مراكش .

تمرين الدرس

في أي سنة بويع المنصور ؟ ومتى رشح ابنه لولاية العهد ؟ من أسس جامع دكالة بمراكش ؟

من ثار على المنصور ، وما كان مآله ؟ وهل تدري سبب النفرة الواقعة بين المنصور ومراد العثماني ؟

ماذا راج بين المنصور وبعض ملوك السودان ؟.

الدرس السادس

غزو المنصور للسودان وفتح مدينة كاغو

علمت ان المنصور فاوض امته في غزو السودان ، واستقر الرأي على ذلك ، الى ان كانت سنة ٩٩٧ فيها قوي عزمه ، واشتغل بتجهيز القوة ، وإحضار آلة الحرب ـ مدافع على عجلاتها ، وبارود ، ورصاص ، وكور ، وسفن ، وأعد جيشاً من ٢٠٫٠٠٠ معهم من المعلمين ـ البحرية والطبجية ٢٫٠٠٠ وعقد المنصور على ذلك الجيش لمولاه الباشا جؤذر ، وشد أزره بجماعة من أبطال الدولة . ثم نهضوا في محرم سنة ٩٩٩ ـ ١٥٩٠ ، بعد ذلك فارقت جيوشهم تانسيفت مارة على درعة ، ثم دخلت القفر والفيافي فقطعها على طولها وما ضاع لهم عقال بعير ولا نقص منهم احد .

سماع إسحق سكية بقدوم جيش المنصور

بعدما أراح الجيش اياماً بتنبكتوثغر ـ السودان سار قاصداً دار اسحق سكية ، وسرعان ما سمع هذا بقدومهم . فحشد امم السودان ، وقبائل الملثمين . وخرج من مدينة كاغو بحر الشوك والمدر في جيش يقال انه بلغ ١٠٤٫٠٠٠ رغم ذلك أضاف الى

هذه القوة اشياخ السحرة ، وأهل النفث في العقد وأرباب العزائم ظناً منه ان ذلك يغنيه .

التحام القتال بين الفريقين

لما تقارب الجمعان عبأ الباشا جؤذر عساكره وتقدم . وحالا دارت بهم القوة السودانية . رغم تلك الاحاطة لم يغن سلاحهم مع البارود شيئاً فما هو إلا آخر النهار حتى هبت ريح النصر ، وانهزم السودانيون وحكمت في رقابهم سيوف جؤذر لغاية أصبحوا من جرائها ينادون : « نحن مسلمون نحن اخوانكم في الدين » واستمر جؤذر يسبي ويقتل في كل وجه أما إسحق ففر في شرذمة من قومه ، وما دخل دار ملكه بل تقدم اليها جؤذر ، واحتوى على ما فيها من الاموال والمتاع ، وذلك سنة ٩٩٩ .

إعلام القائد جؤذر للمنصور بالفتح (١)

كتب جؤذر بالفتح الى المنصور في ضمن هدية فيها ١٠٫٠٠٠

---

١) مطلع القصيدة التي هنأ ابن القاضي بها المنصور لما فتح السودان :

حمدا من المسك المفتق اعطر ‏ ‏ من غرة القصر المبارك يسفر
يا ايها المنصور ابشر بالمنى ‏ ‏ النصر حقا من لوائك ينشر

كما هنأه وزير القلم ابو فارس القشتالي بما مطلعه :

جيش الصباح على الدجا يتدفق ‏ ‏ وبياضه لسواد ذاك يمحق

مثقال (١) ذهباً و ٢٠ من خيار الرقيق وغير ذلك . ثم امتدت عساكر جؤذر في بلاد آل سكية تعيث وتفسد وتسبي الى أن راسله اسحق في الصلح على مال يدفعه حالا وضريبة يؤديها سنوياً فأجابه على مشورة المنصور وإمضائه .

استشارة جؤذر للمنصور في الصلح

كتب جؤذر للمنصور بذلك ، وكانت عساكره أصيبت بالحمى من وخامة الارض ، فاتفق رأيهم على الرجوع لتنبكتو ريثما يرد جواب المنصور ، وفعلاً رجعوا . فلما بلغ الخبر المنصور قام وقعد ، وهيأ جحفلاً آخر بعث به مع مملوكه محمود باشا اخي جؤذر . وقلده امر العساكر كلها ، وعزل أخاه جؤذر عنها على ابقائه مع محمود ، فتوجه في النيل ، وسار السواد الاعظم من المقاتلة في البر الى ان نزلوا مدينة كاغو عاصمة اسحق الذي اغتنم هاته الفسحة فهيأ قوة جديدة من امم السودان المجاورة له ، وأصفقوا معه على الموت .

اشتعال نار القوتين

فلما بلغ إسحق رجوع العساكر الى كاغو : قصدهم في جموعه ،

١) وقد سبق تفسيره باعتبار دراهم فضية واذا عرفت ذلك سهل عليك معرفته ذهبا.

وبها التقى الجمعان ، ولم يكن الا مقدار فواق ناقة ، حتى انهزم السودانيون من سماع رعد المدافع والمهاريس ، وارتفاع القنابل في الجو ، وهدير الطبول . ورجعت القوة المنصورية بالغنائم والسبي . ثم امر محمود اخاه ان يقيم بمدينة كاغو عامراً لهـا . وسار هو في اتباع إسحق ، وعبر النيل في طلبه ، واوقع به ، واحتوى على ما معه من المال . ودخل اسحق القفر فهلك فيه . ثم كانت وقعة اخرى بين محمود واخي اسحق فقضى عليه محمود ايضاً ، وتمهدت له البلاد .

إعلام المنصور بالفتح

كتب محمود بخبر الفتح الى المنصور ، وحين بلغه الخبر سر جداً واقام مهرجاناً عظيماً ، وزينت الاسواق ، واخرجت المدافـع بالنفـط ، وتسابقت الخيول ، واطعم المنصور الناس عـدة ايام ، ورفعت الى المنصور القصائد والامداح . واثاب على ذلك بما تحدث الناس به دهراً طويلاً . ولما استوثق الامر لمحمود باشا بعث بنصف جيشه الى المنصور في هدية عظيمة : عدد من الرقيق و ٤٠ حملاً من التبر (١) و ٤ سروج ذهباً خالصاً . وانواعاً من الطيب وغير

---

١) اتسعت مالية الدولة بهذا الفتح واصبح المنصور لا يعطي في الرواتب الا النضار الصافي والدينار الوافي حتى لقب بالذهبي لفيضان الذهب في عصره وفي سنة ١٠٠١ اتي

ذلك . وانتظمت الممالك السودانية في سلك طاعته ما بين البحر المحيط من اقصى المغرب الى برنو المجاورة لبلاد النوبة المتاخمة لصعيد مصر .

نكبة الفقيه احمد بابا السوداني

احمد بابا السوداني من بيت عريق في العلم والمجد توارث رياسة العلم مدة طويلة تقرب من مائتي سنة كان من عشيرة ذوي يسار وسؤدد ودين لا يبالون بالسلطان .

ولما فتح السودان ابقاهم الباشا محمود على حالهم ، الى ان كانت سنه ١٠٠٢ – ١٥٩٣ فيها سئم السودانيون سلطة المغاربة ، وآنسوا منهم خلاف ما كانوا يعهدون ، وكانت آذانهم صاغية لآل قيت – عشيرة بابا احمد ، وذاك ما حفز المنصور للتخوف . واذ أحس بهذا : بعث لعامله محمود بالقبض عليهم وتغريبهم الى مراكش . فقبض على جماعة منهم الفقيه بابا احمد (١) ودام محبوساً الى ان سرح يوم الاحد ٢١ رمضان سنة ١٠٠٤ .

بالفيلة من بلاد السودان الى المنصور وكان يوم دخولها الى المنصور يوما مشهودا . وبسبب دخول هذه الفيلة ظهرت العشبة المسماة بتابغ حيث ان ساسة الفيلة المذكورة قدموا بها يشربونها زاعمين ان فيها منافع .

١) هو ابن احمد بن احمد ثلاثة احامد بن عمر بن محمد آقيت المدعو بانه صاحب تكميل الديباج وغيره من التآليف وماسرحه المنصور حتى شرط عليه سكنى مراكش . كما بالنزهة .

صراحة بابا احمد وصرامته

بعدما شرح : دخل على المنصور ، ووجده يكلم الناس من وراء حجاب على طريقة (خلفاء بني العباس) فقال الشيخ بابا : ان الله تعالى يقول « وما كان لبشر ان يكلمه الله الا وحياً او من وراء حجاب » (١) وانت قد شبهت برب الارباب ، فان كانت لك حاجة في الكلام فانزل الينا ، وارفع عنا الحجاب ، فنزل المنصور ، ورفعت الاستار . ثم توجه للمنصور يسأله عن السبب الحامل له على نهبه ، وتضييع كتبه (٢) وصفده من (تنبكتو) الى مراكش ، الى آخر ما دار بينهما (٣) .

تصدر بابا احمد لنشر العلم

لما سرح الشيخ بابا السوداني : تصدر لبث العلم ، واهرع

---

١) قرآن كريم من سورة — الشورى وتقدم المنصور لفتح هذه البلاد الاسلامية : يعد من اكبر عيوبه . فانه على عظمة قدره كان معرضا عن الاندلس واهلها بل ما انا وللاندلس وهذه ثغور المغرب كانت لا تزال تحت العدو كالجديدة والدار البيضاء والمعمورة وطنجة والعرائش وسبته . فكيف طاب له على ضخامة ملكه ووفور عدته مساكنة العدو له ومزاحمته له حتى في الجديدة والدار البيضاء وهما من مراسي عاصمة مراكش فليس هذا سوى نموذج من عصور التفكك الاسلامي واهماله للروابط الاسلامية وتقديمه للمصالح الشخصية والكمال لله تعالى .

٢) يقال انها بلغت ١٦٠٠ مجلد كما في النزهة .

٣) انظر النزهة للمؤرخ اليفرني .

الناس اليه قصد الأخذ ، ولم يزل مواظباً على نشر التعاليم الاساسية الى ان مات المنصور ...

في ذلك الوقت اذن ابنه زيدان لآل آقيت في الرجوع الى بلادهم بعد ان مات جماعة منهم بمراكش. وطالما تشوق الاستاذ بابا لرؤية بلده . ثم لحق (بتنبكتو) واستقر بها الى أن وافاه أجله سنة ١٠٣٦ .

بناء قصر البديع بمراكش

في شوال من سنة ٩٨٦ـ١٥٧٨ شرع المنصور في تأسيس البديع بعد ما حشد له الصناع من بلاد الافرنج . فكان يجتمع فيه كل من ارباب الصنائع ومهرة الحكماء خلق عظيم لغاية دعت لاتخاذ سوق عظيمة ببابه يقصدها التجار ببضائعهم ونفائس سلعهم. ثم جلب له الرخام من بلاد الروم (١) . واما جبسه وجيره ، وباقي انقاضه فجمعت من كل جهة . حتى انه وجدت بطاقة فيها أن فلاناً دفع صاعاً من جير حمله من تنبكتو وظف عليه في غمار الناس (٢) وكان كثير الاحسان للصناع كي لا تتشعب افكارهم.

---

١) فكان يشتريه منهم بالسكر وزنا بوزن . وذلك ان المنصور كان اتخذ معاصر السكر ببلاد حاحة وشوشاوة وغيرهما حسبما ذكره القشتالي في المناهل كما في النزهة .

٢) في هذا من العسف والمسكر ما ترى وان دل على الضبط ونفوذ الكلمة .

البديع وصفته

البديع عبارة عن دار مربعة الشكل ، وفي كل جهة منها قبة رائقة الهيئة زانها مـا احتف بها من قباب وقصور ودور . فعظم بذلك بناؤه ، وطالت مسافته . فكان لذلك من احسن المباني ، واعجب المصانع . وكل رخامة طلي رأسها وموهت بالنضار الصافي ، وفرشت ارضه بالرخام العجيب واجري بين قبابه مـاء غير آسن . وبه من الاشعار المرقومة في الاستار ، والابيات المنقوشة في الجهات على الخشب والزليج والجبس ما يسر الناظر ويروق المتأمل .

كل قصر بعد البديع يذم

ودامت اليد العاملة في صنعه من التاريـخ المذكور الى سنـة ١٠٠٢ .

هدم البديع

قضى على محاسن هذا البديع كاسمه السلطان المولى اسماعيل بن الشريف اذ أمر بهدمه سنة ١١١٩ (١) لموجب . وفرق ما كان به من جموع الانس . وعاد حصيداً كأن لم يغن بالامس ، وأصبح

١) فدام البديع ١١٧ سنة . ومن لطائف لفظه انه وفى بهـذا العدد على طريقة حساب الجمل .

مرعى للكلاب والمواشي ، ووكراً للصدى والبوم [1] .

زبدة الدرس ومحفوظته

من علو همة المنصور وبعد نظره ـ انه فتح السودان واتسعت مملكته ، ودرت عليه الخيرات حتى دعي لذلك (بالذهبي) وممن أبعدهم عن ديارهم الى مراكش ـ ابو العباس احمد بابا السوداني الفقيه المشهور . وفي سنة ٩٨٦ ابتدأ المنصور في بناء قصره البديع وأتمه سنة ١٠٠٢ . لكن ويا للاسف كان مآله الخراب على يد المولى اسماعيل العلوي سنة ١١١٩ .

تمرين الدرس

١) في اي سنة توجه المنصور لغزو السودان ؟ كم كانت عساكر المسلمين ؟ وكم كان جحفل السودانيين ؟ في اي سنة جلب بابا السوداني الى مراكش ؟ وكم دام في الثقاف ؟ متى بني قصر البديع ومن هدمه ؟ .

٢) صف لنا حرب المنصور للسودان من اولها الى الفتح النهائي . اذكر قضية ابي العباس بابا السوداني مع المنصور حين سرح وهل عاد لبلاده ، ومتى كان ذلك ؟

---

١) أنشد ابن الابار في تحفة القادم ـ ويا ما كان أمسه بالبديع :

قلت يوما لدار قوم تفانوا ... اين سكانك الكرام علينا

فأجابت هنا اقاموا قليلا ... ثم ساروا ولست اعلم اين

الدرس السابع

ثورة الناصر بن السلطان الغالب بالله

كان الناصر معتقلاً عند المتوكل . ثم اطلق سراحه المعتصم ، واحسن اليه ، و بقي الى وقعة وادي المخازن حين افضى الامر الى المنصور . اذ ذاك فر الناصر الى آصيلا . ثم قصد البحر الى الاندلس . فكان عند طاغية (قشتالة) مدة الى ان سرحه الطاغية الى المغرب رجاء تفريق كلمة المسلمين فخرج بـ (مليلية) سنة ١٠٠٣ ـ ١٥٩٤ . واجتمعت عليه الغوغاء ، واهتز المغرب من جراء ذلك ، فهابه المنصور ، ثم هيأ جحفلاً هائلاً بعث به لمواجهته ، فهزمه الناصر ، واستفحل امره ، ثم عاود المنصور حربه بواسطة ولي عهده المأمون فكانت الدائرة على الناصر بالموضع المعروف بـ (الحاجب) واسترسل في منازلته الى أن قبض عليه ، فاحتز رأسه وأرسله الى مراكش في ٢٣ رمضان ١٠٠٤ ـ ١٥٩٥ ، واستراح المنصور من تشويشه ، وكتب بذلك الى الآفاق (١) .

احتفال المنصور بـ (المولد النبوي) واعتناؤه بسائر الاعياد

كان المنصور عندما يبدو هلال ربيع الاول يصرف الرقاع الى

---

١) انظر بعض تلك المكاتب بكتاب الاستقصا .

الفقراء – ارباب الذكر على رسم الصوفية . والمؤذنين والنعارين في الاسحار فيأتون من كل جهة . ثم تطرز الشموع . وفي ليلة المولد يكون لحمل تلك الشموع اهتزاز عظيم . فاذا طلع الفجر خرج السلطان فصلى بالناس وقعد على اريكته . وعليه حالة البياض (شعار الدولة) . وامامه تلك الشموع المختلفة الالوان . في هذا الوقت يدخل الناس على اختلاف طبقاتهم . فاذا استقر بهم المجلس تقدم الواعظ فسرد نبذة من فضائل النبي صلى الله عليه وسلم ومعجزته وذكر مولده ورضاعه وما وقع في ذلك باختصار . وعند فراغه يندفع القوم لانشاد الاشعار المولدية . ثم يتقدم اهل الذكر المزمزمون باشعار الصوفية . ويتخلل ذلك نوبة المنشدين للبيتين . وبعد هذا يقوم شعراء الدولة الاول فالاول فينشدون قصائدهم المصدرة بالتشبيب والنسيب ثم يتخلصون لمدح الرسول عليه السلام ويختمون بالثناء على المنصور والدعاء له ولولي عهده (١) فاذا طوي بساط القصائد نشر خوان الموائد (٢) في اليوم السابع يكون ترتيب أبدع من الاول .

---

١) وعلى هذا النظام تقريبا يحتفل ملوك دولتنا العلوية الفخيمة اليوم بالمولد النبوي.

٢) فيبدأ بالاعيان على اختلاف مراتبهم ثم يؤذن للمساكين فيدخلون جملة .

احتفاله في رمضان

هكذا كانت سيرته في رمضان عند ختم صحيح البخاري وذلك انه اذا دخل رمضان : سرد القاضي في حفل هائل يضم اعيان الفقهاء كل يوم سفراً من نسخة البخاري (١) الا يوم العيد وتالييه. فاذا كان يوم سابع العيد ختم فيه صحيح البخاري والعادة في ذلك: ان يتولى القاضي سرد نحو الورقتين من اول السفر ، ثم يتفاوض مع الحاضرين في قيم المسائل فيلقي من ظهر له بحث او توجيه ما ظهر له ، وتدوم المذاكرة الى أن يتعالى النهار ، ثم يختم المجلس. ويذهب القاضي بالسفر فيتممه سرداً في بيته . وفي الغد يفتتح سفراً آخر وهكذا .

نظام جيش المنصور

كان المنصور مرتباً جيشه ترتيباً ذوقياً ربما يتعذر على غيره . ولا بدع فانه جمع من انظمة (العرب والعجم) ما جعله آية في

---

١) والنسخة مجزأة على ٣٥ سفرا . ومن فضائل المنصور انه يعطي عطاء فاخرا لذوي الحاجات عند انقضاء رمضان و يقيم مهرجانا يوم عاشوراء لختان اولاد الضعفاء واعطاء كل من ختن اذرعاً من كتان وحصة من الدراهم وسهما من اللحم - فلله ما أكرمك يا منصور .

الاعجاب (١) .

مخالفة ولي العهد (المأمون) لأبيه

كان المنصور ذا شغف كبير بولده المأمون – يعتني به الاعتناء الزائد . ويهتم بشأنه اكثر من غيره ، واذ بلغ هذه الغاية لديه كان لا يختم صندوقاً من صناديق ماله الا قال : جعل الله فتحه على يد الشيخ – ولي عهده . بيد ان القدر لم يساعد حيث كان ولي العهد على العكس من كل ذلك – مشتغلاً بالفسق والعبث بالصبيان وشرب الخمر والفتك بالبرآء . وطالما نهاه المنصور ونصحه وهو لا يزداد الا تمرداً وقساوة . الى ان بعث اليه أبوه – بعض جيشه فحاربه وكانت النتيجة أن قبض عليه وسجنه بمكناسة .

وفاة المنصور رحمه الله

بعد فراغ المنصور من تشويش ابنه : عزم على الرجوع الى مراكش ، لكنه صرف عن عزمه بالوباء الذي كان منتشراً بتلك الناحية . ولزم فاساً الى سنة ١٠١٢–١٦٠٣ وفيها عم الوباء المغرب فأصيب المنصور بدائه ، وذلك يوم الاربعاء ١١ ربيع النبوي عامه .

---

١) انظر تفصيل ذلك بكتاب الاستقصا منقولا عن مناهل الصفا للفشتالي ونزهة الحادي .

وحينا دخل لداره بالمدينة البيضاء . وبقي بها الى أن توفي ليلة الاثنين الموالي لتاريخه . ودفن بازاء مقصورة الجامع الأعظم بعدما صلى عليه امام القرويين الفقيه ابو عبد الله محمد بن قاسم القصار (١) .

نتفة من اخبار المنصور

كان المنصور حسن السيرة ، ذا حزم ويقظة ، يشاور في مهمات الامور حتى انه خصص يوم الاربعاء لذلك واطلق عليه (يوم الديوان) تجتمع فيه وجوه الدولة لابداء آرائهم فيما ينوب من جلائل النوازل ، وفي هذا اليوم - يظهر شكايته كل من لم يجد لها سبيلاً قبل . ومن حزمه انه كان متطلعاً الى اخبار النواحي غير متوان في قراءة ما يرد عليه من رسائل عماله . وكانت كتابه لا تفارق مراكزها . ومع ضخامة ملكه كان ثقيل الوظيف على الرعية حتى تضررت ونالها اجحاف منه . ومن مآثره (البيلة) العظمى مع كرسيها . ومن مخترعاته اللباس المعروف بالمنصورية - وهو

---

١) لقي الفقيه ابن عاشر في وجهته الحجازية الشيخ عبد الله الدنوشري . فسأله هذا عن اشياخه فذكر له القصار من جملتهم . اذ ذاك انشده :

قد حاك شقة العلوم أئمة ... وكسوا بها بالفضل من هو عاري
رقت حواشيها ورق طرازها ... لكنها تحتاج للقصار

يقال ان تقاييد القصار بيعت بعد وفاته بوزنها ذهباً . وهذا دال على ما كان لسوق العلم من النفاق والمكانة في ذلكم العصر الذهبي .

لباس من الملف لم يكن مستعملاً قبله .

زبدة الدرس ومحفوظته

لدى سنة ١٠٠٣ خرج الناصر على المنصور ، وظهر بمليلية واجتمع عليه مستغلو الفتن من الرعاع . ولكن المنصور اعمل كل ما يملك من جهود في القضاء عليه . ومن مزاياه في امته الاحتفال بالمولد النبوي بما يقصر القلم عن وصفه كما كان ذلك منه في رمضان فيسرد صحيح البخاري ، وتورد اثناءه ابحاث علمية لها قيمتها . ومن اعتنائه بالملك و بعد نظره تنظيمه الجيش احسن تنظيم . ثم خرج عليه ولي عهده المأمون فقبض عليه وسجنه . وفي سنة ١٠١٢ وقع طاعون بالمغرب أصيب به المنصور فيمن أصيب فمات رحمه الله .

تمرين الدرس

في اي سنة قام الناصر على ابيه ؟ هل تدري شعار الدولة في لباسها ؟ هل كان يحتفل المنصور في رمضان ؟ في اي سنة انتشر الوباء في المغرب ، وهل اصيب به المنصور ؟ اذكر سنة وفاة المنصور .

اكتب ما علق بذهنك عن ثورة الناصر . اسرد لنا جميع ما درسته عن احتفال المنصور بالمولد . وهل يحتفل في رمضان و كيف ذلك ؟ أتذكر شيئاً عن نظام جيش المنصور ؟ أخبرنا عن سيرة المنصور .

الدرس الثامن

دولة ابي المعالي زيدان بن احمد المنصور

لما توفي المنصور اجتمع اعيان فاس وكبراؤها والجمهور من جيش المنصور على بيعة ولده زيدان ، وذلك يوم الاثنين السادس عشر من ربيع الاول سنة ١٠١٢ اما اخوه المأمون فبقي معتقلاً الى ان كان من امره ما تراه .

انحراف اهل مراكش عن بيعة زيدان وبيعتهم لابي فارس

من سياسة المنصور انه قسم المغرب بين اولاده – فجعل زيدان على تادلا واعمالها ، وابا فارس على مراكش والشيخ ولي عهده على فاس . ومن خور تلك السياسة اصبح المغرب في اضطراب وتفرقة . فها اهل مراكش امتنعوا عن بيعة زيدان ونصروا ابا فارس يوم الجمعة اواخر ربيع الاول سنة ١٠١٢ واسمه عبد الله وتلقب بالواثق ، من مآثره المسجد الجامع بجوار ضريح ابي العباس السبتي ومناره ، وشحن الخزانة التي بقبلي الجامع بنفيس الكتب ومنتخب المؤلفات (١) وكان يميل الى المروءة والرفق .

---

١) فعل ذلك على ما قيل لعلة داء كان مصابا به – مس الجن رجاء ان تعود عليه بركة صاحب الضريح بالبرء .

انهزام زيدان في حرب ابي فارس

حين بايع المراكشيون ابا فارس هيأ زيدان جيشاً ، وقصد به بلاد الحوز ، وسرعان ما بلغ الخبر ابا فارس فجهز لقتاله جحفلاً جراراً امر عليه ولده عبد الملك (غير انه لوحظ عليه في ذلك) فأسرع لاطلاق سراح المأمون من ثقافه ، واخذ عليه عهوداً ومواثيق في سبيل النصح والطاعة ، وعدم شق العصا . وقدمه على ٦٠٠ من جيش ابيه ، فتوجه حينا الى جهة القوة الزيدانية بوادي ام الربيع . وعند بلوغه الوادي اهرع الناس اليه مستبشرين بمقدمه ولدى اللقاء فر اكثر جيش زيدان وانهزم للحين وفر الى فاس ، ومنها الى تلمسان ، وكان ابو فارس ينوي القبض على المأمون اذا انهزم زيدان بيد ان اصحابه عجزوا عن ذلك حيث قويت شوكة المأمون .

قتال عبد الله بن الشيخ عمه ابا فارس واستيلاؤه على مراكش

ان الشيخ المأمون لما تغلب على فاس استسلف من تجارها مالا كثيراً . واظهر من الظلم وسوء السيرة ما هو شهير . ثم استصفى اموال قواد ابيه . وعذب من اخفى ذلك . إثر هذا جهز عسكراً من ٨،٠٠٠ وامر عليه ولده عبد الله فسار بجيوشه قاصداً ابا فارس

حلته (اكليم) فهزمه ، وقتل نحو المائة من اصحابه ، وفر ابو فارس بنفسه ودخل عبد الله الى مراكش في ٢٠ شعبان سنة ١٠١٥ — ١٦٠٦ فأباحها لجيشه فنهبت دورها واستبيحت محارمها ، واشتغل هو بالفساد (ومن يشابه اباه فما ظلم) .

مجيء زيدان الى المغرب واستيلاؤه على مراكش

في اواخر سنة ١٠١٥ قدم زيدان الى مراكش بطلب من اهلها ، وقلبوا ظهر المجن لعبد الله بن الشيخ ، ففر حالا الى فاس ، وفتك زيدان بمن كان معه . اما عبد الله فزوده ابوه الشيخ ، ورفع لمراكش ، فدارت حرب اخرى بين الفريقين كانت الكرة فيها على زيدان ، وذلك في ٢ شعبان سنة ١٠١٦ — ١٦٠٧ وأتى القتل في هذه المعركة على أزيد من ١٥ الفاً .

استيلاء زيدان على فاس وفرار الشيخ بن المنصور الى العرائش

لقد سئم الشعب الفاسي عيث الشيخ وجوره واعتسافه وفي سنة ١٠١٦ بعث ولده عبد الله ثالث مرة لحرب عمه زيدان بمراكش ، والتقى الجمعان بوادي (بور كراك) فكانت الهزيمة على عبدالله ، ولم يجد حيلة عدا الفرار ، واستولى زيدان على قوته . في هذا الوقت استفحل امر زيدان وتحدث بشأنه المغاربة ، وسرعان ما وقع الرعب

في روع الشيخ وارتحل عن فاس الى القصر الكبير . ثم تبعه ابنه المهزوم اثر ذلك التحق بهما ابو فارس وفي سنة ١٠١٧ (١) نهض زيدان الى الشيخ بيد انه فر الى العرائش ، ومنها ركب البحر الى طاغية الاندلس قصد الاستصراخ به .

رجوع عبد الله بن الشيخ الى فاس واستيلاؤه عليها

لما دخل زيدان الى فاس اقام بها الى سنة ١٠١٨ وفي التاريخ اتصل به ان بعض الثوار قامت عليه بناحية مراكش فنهض اليها مرغماً ، واستخلف على فاس مولاه — مصطفى باشا . عقب هذا بلغ عبد الله خبر مفارقته فاساً ، وفوراً اغتنم عبد الله بن الشيخ هذه الفرصة ، وزحف الى فاس فيمن انضم اليه ، فبرز اليه مصطفى باشا ، والتقى الجمعان في ١٧ ربيع الثاني من السنة وقتل مصطفى باشا ، وهلك من لا يحصى من الناس ، ووقع النهب . في هذه الظروف قتل عبد الله عمه ابا فارس ، اذ بلغه ان (شراكة) اتفقوا على قتل عبد الله وتولية ابي فارس .

---

١) في هذه السنة امت الجالية الاندلسية من غرناطة واعمالها بلاد المغرب وقصدت الاكثرية منهم تونس واسسوا بها نحو عشرين قرية كما اتي البعض منهم الى فاس والعدوتين — الرباط وسلا وتطاوين والجزائر لكنهم انتهبوا اثناء طريقهم للفوضى والقلاقل التي سادت اذ ذاك .

عود السلطان زيدان الى فاس عودته الاخيرة

لما سمع الامير زيدان بقتل مولاه ـ مصطفى هاله الامر ونهض يريد فاساً على طريق الجبل (وكانت نصارى الاصبنيول وقتئذ قد نزلوا على العرائش) (١) في هذه الآونة اتى زيدان فاساً ونكل بأهلها ، واطلق السبيل في محارمها ففعلوا الافاعيل الشنيعة . بعد ذلك امر بتسكين الروعة ، وذلك في سادس رجب سنة ١٠١٩ – ١٦١٠ ، وفي يوم ١١ من الشهر نزل عبد الله (برأس الماء) فخرج اليه زيدان . واقتتلوا . وفي المعركة دارت الدائرة على زيدان ففر منهزماً . وكان هذا آخر رجوعه الى فاس .

استيلاء الاصبنيول على العرائش

في سنة ١٠١٨ نزل الشيخ بحجر باديس ، ثم تقدم لبلاد الريف ، وحينما بلغ ذلك اهل فاس فأهرع اليه جمع من علمائهم واعيانهم ـ كالقاضي ابي القاسم بن ابي النعيم ، وابي اسحق الصقلي الحسيني وغيرهما لملاقاته وتهنئته خوفاً من شوكته ، بعد ذلك انتقل الى قصر كتامة واقام به مدة يراود قواده ورؤساء جيشه كي يقفوا معه في تمكين النصارى من العرائش فامتنعوا عدا قائده (الكرني)

---

١) وذلك باذن الشيخ كما تراه بعد .

وفعلاً أخذ في اخلائها ، وقتل جماعة من رجالها . ثم دخلها النصارى في رابع رمضان سنة ١٠١٩ ووقع في قلوب المسلمين من الامتعاض لاخذ العرائش ما وقع لغاية نودي فيها بالجهاد ، لكن فت في ساعد المسلمين (١) .

مقتل الشيخ

تابع الشيخ خطته السيئة ، فاستولى على تطوان ، واخرج كبيرها - المقدم المجاهد ابا العباس احمد النقسيس ، ولم يزل الشيخ يجول في بلاد الفحص ، ويعسف اهلها الى أن ملته القلوب ، وتمالأ رجال الفحص على قتله (لما رأوا من انحلال عقيدته ، وتمليكه ثغر الاسلام للكافر) فكان المتولي لاهلاكه : هو المقدم ابو الليف في موضع يعرف بـ(فج الفرس) وبقي صريعاً على وجه الارض مكشوف العورة اياماً الى أن دفن ، وكان مقتله في خامس رجب سنة ١٠٢٢ - ١٦١٣ .

زبدة الدرس ومحفوظته

ولي الامارة زيدان بعد وفاة ابيه المنصور سنة ١٠١٢ فانحرف

---

١) لما شاهد الشيخ هذه الفظائع التي ادخلها على المسلمين : استفتى علماء فاس فافتوه بمقتضى هواه خوفا على انفسهم والامر لله .

عنه اهل مراكش وبايعوا ابا فارس ، ووقعت قلاقل محزنـة هلك فيها من لا يحصى في سبيل المنافسة واستغلال الملك للحصول على الملاذ والشهوات لا لاعلاء كلمة الاسلام والسعي وراء المصالح العامة .

تمرين الدرس

١) على من اجتمع الناس بعد وفاة المنصور ؟ ومن بايع ابا فارس؟
٢) اكتب عما وقع من التنافس لزيدان ، والى ماذا آلت الحالة .

الدرس التاسع

رياسة الزعيم ابي عبد الله العياشي على الجهاد

ابو عبد الله العياشي من تلامذة (ابي محمد عبد الله بن حسون السلاسي) دفين سلا . رحل الى آزمور ونزل عند اولاد (ابي عزيز) وانقطع هناك لمجاهدة العدو ومضايقة نصارى الجديدة بجبهة قوية منعتهم حتى من الحرث والرعي ثم عاد لسلا في خبر طويل سنة ١٠٢٣ ـ ١٦١٤ .

ثورة الفقيه السجلماسي المعروف بابي محلي (١)

ابو العباس بن عبد الله المعروف بـ (ابي محلي) قد كفانا مؤونة

---

١) ذكر صاحب كتاب المرقي في مناقب سيدي محمد الشرقي ما يشعر بسبب ثورة ابي

حياته حيث أثبتها بقلمه في كتابه (اصليت الخريت) كما ترجمه ايضاً غير واحد كصاحب (البستان) وصاحب رسالة (التخلي والتحلي من صحبة الشيخ ابي محلي) . صحب ابو محلي هذا ابا عبد الله مولاي محمد بن مبارك الزعري الجراري نحو ١٨ سنة . ثم فارقه باذنه . وقصد بلده سجلماسة الى أن كان منه ما أصبح ينتحل به المهدوية ويدعي أنه (الفاطمي المنتظر) فجاهر بالدعوة لنفسه ، واستخف قلوب العوام فاتبعوه .

استيلاء ابي محلي على سجلماسة ودرعة

أظهر ابو محلي غضباً شديداً مما فعله بعض السعديين كالشيخ الذي مكن العدو الكافر من (العرائش) . وأخذ يلقن اتباعه أن هؤلاء الاشراف يجب الضرب على ايديهم وكسر شوكتهم . فأم سجلماسة ، وحارب عاملها لزيدان (الحاج المير) وكانت الدائرة على جيش زيدان ، فأعلن بالعدل وغير المناكر . وتمكن ناموسه ، وأمته الوفود [١] عقب هذا قصد مراكش . في هذا الوقت هيأ

محلي ففي احدى تراجم الكتاب : ان ابا محلي ذهب مع بعض الناس بصفته طالبا للعلم الى مراكش وهناك لقي زيدان ويظهر انه سبر الاحوال وتعرف باطن حاشية زيدان وجلية امره ثم ثار بعد ذلك .

١) منهم الفقيه ابو عثمان سعيد الجزائري المعروف بقدورة شارح السلم وهو ممن اخذوا عن ابي محلي وتلمذوا له كما ذكره في الاصليت ه من النزهة .

«٥»

اليه الأمير زيدان جحفلاً كثيفاً لكنه لم يغن شيئاً بل هزمه ابو محلي ، ودخل مراكش ، أما زيدان ففر الى ثغر آسفي .

استصراخ زيدان بابي زكرياء يحي بن عبد المنعم الحاحي

كان يحيي هذا بزاوية أبيه من (جبل درن) له شهرة عظيمة بالصقع السوسي ، وله اتباع . فأتاه زيدان وقال له : ان بيعتي في أعناقكم ، وانا بين أظهركم . فيجب عليكم الذب عني . فلبى ابو زكرياء دعوته ، وحشر الجيوش من كل جهة ، وقصد مراكش في ٨ رمضان سنة ١٠٢٢ . ولما انتهى الى (تانوت) موضع بمراكش ــ كتب الى (ابي محلي) فأجابه [١] وكان من ذلك ان استعرت الهيجاء ، وسطع الرهج من سنابك الخيل عند جبل (جليز) ، فكانت اول رصاصة في نحر ابي محلي . فهلك مكانه واحتز رأسه [٢] .

ثقافة ابي محلي وآثاره العلمية

كان ابو محلي فقيهاً محصلاً ، له قلم بليغ ، ونفس عال . وله

---

١) انظر نص الرسالتين بكتاب النزهة .

٢) وبقي معلقـــا هنالك مع رؤوس جماعة من اصحابه نحواً من ١٢ سنة اماجثته فدفنت بروضة ابي العباس السبتي . ويزعم اصحابه انه لم يمت بل تغيب وقد رمز لتاريخ ثورته ووفاته ابو العباس المريدي بقوله : قام طيشا ومات كبشا .

تآليف منهـا : الوضاح ، والقسطاس ، والاصليت ، والهودج ، ومنجنيق الصخور ، في الرد على اهـل الفجور . وجواب الخروبي عن رسالته الشهيرة لابي عمر القسطلي (١) . وبينه وبين يحيى بن عبد الله مراسلات ومهاجاة نظماً ونثراً .

كان ابو زكرياء من بيت علم وصلاح فجرى على سنن أسلافه ، بيد انه انقلب ووقع له قريب مما وقع لابي محلي ، فتصدى للملك والسلطنة وسرعان ما تكدر مشربه ، واستمر على هـذه الطريقة الى ان توفي وما تم له امر . وتحقق بهذا ونوعه ما قاله بعض مفكري العلماء : « ان الرياسة اذا دخلت قلب رجـل لا تقصر عن إذهاب رأسه » وليس عهد (ابي محلي ببعيد) . ثم دارت بينه وبين السلطان زيدان مكاتبات ورسائل ضمت مسائل قيمة (٢) .

استيلاء نصارى الاصبان على المعمورة

لدى سنة ١٠٢٣ استولى النصارى على المعمورة قصد ضمها الى

---

١) عمر بفتح العين والميم وسكون الراء هو بن احمد ابي القـاسم الاندلسي القسطلي ثم المراكشي دفين رياض العروس منهـا قرب ضريح الامام الجزولي هـ من الازهـار العاطرة الانفاس لسيدي جعفر الكتاني .

٢) انظرها بكتاب نزهة الحادي .

العرائش . في هذه الظروف المشؤومة أتى اهل سلا الى ابي عبدالله العياشي ، وذكروا له ما حاق بهم من الخوف من نصارى المعمورة ، وان مسارحهم قد امتدت الى الغابة ، وان النصارى الفان من الرماة سوى الفرسان . وحالا امرهم العياشي بالتهيء اليهم ، وبرز بهم الى النصارى . واستعرت الحرب بين الفريقين اسفرت عن انجلاء العدو عن الغابة ، في هذه الآونة انتقض اندلسيو سلا على الامير زيدان حتى أظلم الجو بينه و بينهم ، واصبح اهل سلا فوضى لا والي عليهم . في سنة ١٠٢٠ – ١٦١١ ثار بفاس الشريف ابو الربيع بن محمد الزرهوني وعضده الفقيه ابو عبد الله اللمطي المعروف بـ (المربوع) . وتبعهما اهل فاس بأجمعهم وطردوا من كان بها من جيش السلطان . بسبب ذلك جرت خطوب انقطع الملك فيها سنين بفاس ، و بقي الناس فوضى ودام ابو الربيع كذلك الى ان قتله المربوع واستولى على فاس .

اجتماع اهل فاس على عبد الله بن الشيخ

حين سئم اهل فاس من الفوضى والفتن ، وكثرة الحصار ذهبوا الى عبد الله بن الشيخ بفاس الجديد ، ونصروه ، وأظهروا الود له ، وتحالفوا على نصره فعفا عنهم . بعد هذا أتي – بالمربوع فصفح

عنه . وعادت دولة عبد الله الى شبابها واستتب امره سنة ١٠٢٧ .
وفي سنة ١٠٢٨ قتل المربوع اللمطي ، ونهبت داره .

ثورة محمد بن الشيخ على اخيه عبد الله

لاجل هذه الفتن والقلاقل التى سادت واستوسع الوهي معها في الشعب : بايع اهل بلاد الهبط ـ محمد بن الشيخ المعروف بـ (زغودة). وأصبحت الحروب بين الاخوين تتقد فمرة على زغودة وأخرى على منازله وغدت تجدد من جراء ذلك رؤوس الثوار على فاس ، وكانت الحرب بينهما لا تفتر الى ان قتل محمد سنة ١٠٣٨ ـ ١٦٢٢. ثم خلفه اخوه عبد الملك نفس السنة ، واقتصر على ما كان لاخيه الى ان توفي في ذي الحجة سنة ١٠٣٦ ـ ١٦٢٦ .

ثورة ابي زكرياء السالف الذكر

لما رجع يحيي بن عبد المنعم من مراكش الى السوس . تاقت نفسه لطلب الملك وجمع الكلمة . وكان المرابط ابو العباس احمد ابن موسى السملالي (١) قد ظهر بالصقع السوسي عند فشل ريح السلطان زيدان . واستولى على (تارودانت) واستلبها من يد ابي حسون بعد معارك دامية . واسترسل يعالج امر السلطنة من دون

١) ويقال له ابو حسون .

بما جدوى حيث لم يتم له امر الى أن توفي سنة ١٠٣٥ ـ ١٦٢٥ بقصبة تارودانت .

بقية اخبار السلطان زيدان ووفاته

كان الامير زيدان منذ مات ابوه المنصور . وتربعه على منصة الملك لم تخل سنة من وقيعة وكان ذلك سبباً في خلاء المغرب . خصوصاً مدينة مراكش ، ومما عد عليه من الخور وسخافة الرأي ـ أنه بعث لصاحب القسطنطينية بعشرة قناطير من الذهب رجاء اعانته في بعض الوقائع . وكان ومن قدر الله ان جهز له ١٢ الفاً من جيش الترك لكنهم غرقوا . كان زيدان شرس الخلق ، كثير المراء (١) توفي في المحرم سنة ١٠٣٧ ـ ١٦٢٧ . ودفن بجانب ابيه من قبور الأشراف .

زبدة الدرس ومحفوظته

ظهر ابو عبد الله العياشي بآزمور ، وأبلى بلاء حسناً في جهاد اعداء الدين ومطاردتهم . أثناء هذا قام ابو محلي يدعي المهدوية ، وانتحل طريقة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر شبه (ابن تومرت)

---

١) وقضيته مع ابي العباس الصومعي في تسمية كتابه الموضوع في ابي يعزى المسمى المعزى لغاية لطم فيها ابا العباس . انظر الاستقصا كي تحظى بصورة القصة .

الى أن قتل . وفي سنة ١٠٢٣ استولى نصارى الاصبان على المعمورة ، وقبل هذا التاريخ بسنتين ثار بفاس ابو الربيع الزرهوني وعضده المربوع بل كان السبب في قتله ، ثم قام عبد الله بن الشيخ واسترجع شيئاً من ملكه بعد ما ثار عليه اخوه .

تمرين الدرس

على من تلمذ العياشي ؟ وما سبب خروجه من سلا الى آزمور ؟ كم عاشر ابو محلي شيخه محمد بن مبارك ؟ في اي سنة توفي زيدان ؟ اذكر معلوماتك عن المجاهد العياشي . اكتب عن ابي محلي وثورته . اسرد قصة استيلاء الاصبان على المعمورة . أسطر بقية اخبار زيدان .

الدرس العاشر

السلطان ابو مروان عبد الملك بن زيدان

لما توفي الامير زيدان في التاريخ المتقدم بويع ابنه عبد الملك ، وريثما تمت له البيعة ثار عليه اخواه الوليد واحمد ، واصطلت بينهم للحين معارك كان مآلها انهزام الاخوين واستيلاء عبد الملك على العدة والذخيرة . وفر احمد لبلاد الغرب ، فدخل فاساً وحاول الملك لكنه أُخذ وسجن . وبعدما سرح أعلن العامة بنصره غير أن

ذلك لم يتم ، ثم توفي قتيلاً سنة ١٠٥١ ـ ١٦٤١ .

قيام ابي عبد الله العياشي بسلا ومبايعة اكابر الشعب اياه

سبقت أخبار ابي عبد الله العياشي . وها هو الآن صدع بالدعوة والنهوض للجهاد بعدما كاتبه علماء عصره وألحوا عليه في الذب عن بيضة الاسلام ـ كالامام ابي محمد عبد الواحد بن عاشر ، وابي عبد الله العربي الفاسي وغيرهما قائلين له : إن مقاتلة العدو لا تتوقف على وجود السلطان ، وإنما جماعة المسلمين تقوم مقامه[١] اذ ذاك تم أمره وبايعه الناس ، وأصبح يباكر العدو ويراوحه بارادة لا تعرف الكلال حتى كانت له اليد المشكورة في مجابهة الاعداء كنصارى (المعمورة) ونصارى (العرائش) وكان الفوز والظفر حليفيه في كل ذلك « إن يعلم الله في قلوبكم خيراً يوتكم خيراً »[٢] ومن مؤسساته الحربية البارزة ـ البرجان على ساحل مرسى العدوتين من ناحية سلا ، وهما المعروفان اليوم بالبساتين[٣].

١) انظر الاستقصا لابي العباس الناصري .

٢) قرآن كريم من سورة الانفال ـ ان تنصروا الله ينصركم ويثبت اقدامكم : سورة محمد .

٣) الاستقصا وجملة ما استولى عليه محمد العياشي سلا ونواحيها وعلى تامسني وعلى اعراب الغرب ولم يزل في نحر العدو حتى سرب المسلمين وحق القول على الكفرين . ومن كراماته انه يعلم الناس بالغنيمة قبل وجودها وكان فقيها مشاركا في الفنون وله اتباع ،النزهة باختصار.

بقية اخبار عبد الملك بن زيدان ووفاته

كان عبد الملك فاسد السيرة فسيقاً سكيراً ليس له ضمير ، يفتك باعراض الناس وحرمهم ، (١) دام كذلك ايام حياته الى ان قتله العلوج وهو طافح في ١٦ شعبان سنة ١٠٤٠ — ١٦٣٠ .

دولة الامير ابي يزيد الوليد بن زيدان

وقتما قتل عبد الملك في التاريخ المذكور بويع اخوه الوليد ، واقتصر على ما كان لاخيه وابيه ؛ إذ لم يجاوز سلطانه مراكش واعمالها ، وعظمت الفتن بفاس حتى عطلت الجمعة والتراويح من جامع القرويين مدة (٢) .

ظهور ابي حسون السملالي واستيلاؤه على درعة وسجلماسة

هذا هو ابو الحسن او ابو حسون المشار اليه سابقاً إذ كان استولى على (تارودانت) لكن أخرجه عنها ابو زكرياء بن عبد المنعم بعد حروب . وبعد وفاة ابي زكرياء صفا لابي حسون قطر السوس . ثم مد يده الى درعة إثر مهلك زيدان فاستولى عليها ،

---

١) وفظاعته يوم اقام احتفالا بعقيقة ولده واستدعى اليها نساء اعيان مراكش تنبيك عن نذالته وطيشه انظر النزهة .

٢) اذ اقتسم المغرب في ايام اولاد زيدان طوائف لغاية اصبح يمثل معها مأساة ملوك الطوائف بالعدوة الاندلسية .

ثم على سجلماسة ، ولم تزل قوته نافـذة في سجلماسة الى أن ثار عليه الاسد الهصور المولى محمد الشريف فأبعده عن سجلماسة بعدما تصلصلت الدروع بينهما من وقع البيض بما يشيب له الوليد . ثم أخرجه من درعة ايضاً .

بقية اخبار الوليد بن زيدان ووفاته

كان الوليد متظاهراً بالديانة لـين الجانب ، الشيء الذي حفز الخاصة والعامة للاقبال عليه . وكان له ولوع بالسماع . وممـا انتقد عليـه : اشتغاله بقتل الاشراف من إخوته وبني عمـه حتى أفنى اكثرهم ، مـع كل ذلك كان يحب العلماء ويميـل اليهم في تواضع [١] توفي سنة ١٠٤٥ - ١٦٣٥ . والذي تولى قتله جنده من العلوج ، اذ كان منعهم أعطياتهم وأخذ يسخر بهم .

دولة ابي عبد الله محمد الشيخ بن زيدان

عقب قتل الامير الوليد اختلف الناس فيمن يقدمونه للولايـة الى ان أجمع رأيهم على مبايعة اخيه محمد الشيخ ، فبايعوه بعدمـا

---

١) وله الف القائد ابو الحسن علي بن الطيب منظومته المشهورة في الفواكه الصيفية والخريفية . والقصبة المعروفة بالوليدية على ساحل البحر المحيط فيما بين آسفي وتيط هي منسوبة اليه زهرة الشماريخ .

أخرجوه من السجن يوم الجمعة ١٥ رمضان سنة ١٠٤٥ . فسار في الامة سيرة حميدة وألان جانبه للكافة وكان متوقفاً في سفك الدماء . ومن آثاره القبة الحافلة التي بناها على قبر الشيخ ابي عبدالله محمد بن ابي بكر الدلائي ، لما كان فيه من محبة الاولياء والصالحين . ومن سوء حظه انه كان منكوس الراية ، مهزوم الجيش (١) بسبب ذلك ما صفا له من تراب الشعب المغربي الا مراكش واعمالها . زد على ذلك ما كان يكابده من اتعاب الثائرين بالايالة .

بقايا اخبار ابي عبد الله العياشي

علمت سابقاً ما كان من جهاد ابي عبد الله العياشي للعدو والابلاغ في نكايته حتى انتعش به الاسلام . ودخلت في طاعته القبائل والامصار .

وفادة (٢) اعلام فاس وأشرافها على ابي عبد الله العياشي

سبب هذه الوفادة هو ما وقع من الحرب بين اهل فاس والحياينة وشراقة على قنطرة وادي سبو . في هذا الوقت أم شرفاء

---

١) كأن تلك المحبة لم يكن لها أثر فيما رشح له . مؤلف .

٢) هذه الوفادة ذكرها ابو عبد الله ميارة الفاسي في فاتحة شرحه الصغير على المرشد المعين .

فاس وفقهاؤها سلا مستغيثين بالعياشي ، فاندفع رحمه الله لاجابتهم . وقدم فاساً عاملاً قوته في عرب الحياينة غـير مرة الى ان خضعوا للطاعة .

ايقاع المجاهد العياشي بنصارى الجديدة

كان ابو عبد الله العياشي قاصراً لذته على جهاد الكفرة واعداء الملة ففي سنة ١٠٤٩ - ١٦٣٩ غزا العرائش ، ثم منهـا قصد الجديدة رغم كون مسلكها - وادي ام الربيع في إبان امتلائـه الذي لا يستطيع بشر ان يسلكه . مع ذلك ما فت هذا الامتلاء في عزم (البطل العياشي) بل بلغ الوادي ووجده كما وصف فغالب تلك الاخطار . وقطعه في اصحابه حتى لم يكن ماؤه يصل لركب الخيل (وعمقـه حال امتلائه لا يدرك له قعر) فعد ذلـك من (كرامة) الشيخ ابي عبد الله . ثم أوقع باولئك الكفار وقيعـة شنعاء لغاية قامت بسببها ملحمة عظيمة لم يسبق لها نظير . وسجن الاسرى بسلا سنتين . فغزوات ابي عبد الله العياشي كثيرة وذبـه عن الاسلام شيء شهير لا يكاد يخفى .

مقتل ابي عبد الله العياشي

كان ابو عبد الله قد سئم خبث اندلسيي سلا وممالأتهم للنصارى

ومد يد المساعدة اليهم ضد المسلمين . وذلك ما حفز بطولته الصادقة لقتالهم ، ومن حيطته وتوقفه استفتى الفقهاء فيما عزم عليه ، فأفتوه بحربهم ، هناك أطلق فيهم السبيل اياماً قتل فيها من قتل وفر اكثرهم . اثناء ذلك أتى أهل الدلاء يشفعون في أهل الاندلس فأبى ابو عبد الله قبول الشفاعة وقال : الرأي في استئصال شأفتهم ، فاغتاظ أهل الدلاء لرد شفاعتهم ، وأجمعوا على حربه . وبقيت البغضاء تتربى في الصدور الى أن قتل من جرائها ابو عبد الله عند الخلط بموضع يعرف (بعين القصب) واحتز رأسه وحمل الى سلا ، وذلك سنة ١٠٥١ - ١٦٤١ [1] .

زبدة الدرس ومحفوظته

الذي بويع بعد وفاة زيدان هو ابنه عبد الملك غير ان الأمر لم يتم له . ثم قام ابو عبد الله العياشي من جديد فاستأنف جهاده الاعداء شمالا وغربا ، وكان اندلسيو سلا يقاومونه سراً ويمدون العدو ضد المسلمين اذ ذاك تجرد للانتقام منهم غير مكترث لشفاعة الدلائيين ، فكان ذلك من اسباب حتفه رحمه الله .

---

١) واخبار العياشيين ومحاسنهم كثيرة جليلة وبيتهم بيت خير وصلاح .

تمرين الدرس

من بويع بعد وفاة زيدان ؟ ومن قام عليه ؟ من خاطب ابا عبد الله بالنهوض للذب عن كلمة الاسلام ؟ من قتل عبد الملك بن زيدان ؟

اكتب ما درسته في الدرس عن عبد الملك بن زيدان . اسطر لنا ما علمته عن ابي عبد الله العياشي من اول ظهوره الى نهاية حياته .

الدرس الحادي عشر

ظهور اهل زاوية الدلاء

اهل زاوية الدلاء من برابرة مجاط (١) كان جدهم الصالح ابو بكر محمد المجاطي اخذ عن القدوة المولى السيد ابي عمرو القسطلي دفين مراكش . وسكن الدلاء ، واتخذ هنالك زاوية ، ثم جاء ولده ابو عبدالله (٢) فأتم ما بقي وأبدى من الاسرار ما خفي ، وسرعان ما تناقل الناس حديث الزاوية ، فقصدها حتى اعلام عصره — كالحافظ ابي العباس المقري والشيخ ابي العباس بن يوسف الفاسي والاستاذ ابن عاشر والفقيه ابي عبد الله ميارة وغيرهم اتوه للزيارة

---

١) بطن من صنهاجة حسبما في ابن خلدون وغيره وزاويتهم هذه الف في مناقبها المؤرخ الحوات بما اسماه البدور الضاوية في مناقب الزواية الدلائية .

٢) اخذ عن ابي عبد الله محمد الشرقي وجد هؤلاء الدلائيين ولد سنة ٩٤٣ كما في النزهة .

والتبرك ، ومرماهم الوحيد مراجعتـه في عويص المسائل المدلهمـة وغامض العلم لما كان عليه من التضلع والاطلاع .

استحكام امر رجال زاوية الدلاء

ثم دارت بين الامير محمد الشيخ بن زيدان وبين اهل هذه الزاوية مراسلات ومعاتبات وعندما شاهد محمد الشيخ تعاصي اهـل الزاوية عليه ، واستحكام امر الغرب لهم ، وقوة سلاحهم ـ صرف عزمه عن مقارعتهم ، ومال الى المسالمة .

ماراج بين السلطان محمد الشيخ والامير المولى محمد بن الشريف

في هذه الظروف اخذ امر السادات العلويين يبدو ووقعت بين السلطان محمد الشيخ السعدي وبين الامير المولى محمد بن الشريف السجلماسي مكاتبات ذات مفاخرة وعتاب وتحذير .

وفاة محمد الشيخ بن زيدان

توفي هـذا الامـير سنة ١٠٦٤ ـ ١٦٥٣ [١] ودفن بقبـور الاشراف من قصبة مراكش في روضة ابيه وعشيرته ـ تلك المقبرة التي اصبحت في العصر الحاضر تمثل اثراً من آثار الصنعة المغربية .

---

١) وقيل توفي قتيلا سنة ١٠٦٣ .

شاهدة بعلو الرقة ومحكم الهندسة البشرية لذلك العهد البعيد (١) .

خبر السلطان ابي العباس بن محمد الشيخ

بعد وفاة محمد الشيخ بن زيدان بويع ابنه ابو العباس (٢) وقام مقام ابيه بل كان اشبه به من الماء بالماء ، غير ان (حي الشبانات) اخواله قويت شوكتهم في عصره ، ووثبوا على الملك ، فضايقوه وحاصروه بمراكش اشهراً ، وذلك ما دفع امه — ان اشارت (٣) عليه بالذهاب الى اخواله كي يأخذ بقلوبهم ، وفعلاً نفذ فكرة امه وقصدهم فتمكنوا منه وقتلوه غيلة ، واتى عليه المثل العربي : « كالباحث عن حتفه بظلفه » واقبلوا الى مراكش مسرعين ، وبايعوا اميرهم (عبد الكريم) بن ابي بكر الشباني . وكان مقتل الامير ابي العباس سنة ١٠٦٩ — ١٦٥٨ (٤) وبمهلكه انقرضت دولة السعديين من آل زيدان ، فسبحان من لا يبيد ملكه .

---

١) في تلك الروضة الفاخرة لعهدنا هذا قد جعلت معهدا أثريا يزار على قدر من الدراهم يقدمه الزائر ما عدا لحظة من يوم الجمعة فانه يزار مجانا .

٢) ويعرف عند العامة بمولاي العباس .

٣) وقيل سنة ١٠٦٥ كما في نشر المثاني .

٤) وذهب ضحية هاته الاشارة الخائرة في تاريخ الضعيف الرباطي : ان امه كانت مغرمة بكبير الشبانات الامر الذي دفعها ان تمالأت معهم على قتل ابنها . وحبك الشيء يعمي ويصم .

دولة الشبانات بمراكش واعمالها

بعد مقتل السلطان ابي العباس ثار كبير (حي الشبانات) من عرب معقل ، وهو الرئيس (عبد الكريم) (١) فدخل مراكش ودعا الناس لبيعته فبايعوه سنة ١٠٦٩ ـ ١٦٥٨ وانتظمت له مملكة مراكش ونواحيها ، وسار في الامة سيرة حسنة ، وكانت ايامه ايام الغلاء المؤرخ بسنة ١٠٧٠ واستمر مستقيم الادارة والرأي الى ان توفي سنة ١٠٧٩ ـ ١٦٦٨ قبل ورود (المولى الرشيد) بن الشريف باربعين يوماً . وبعد وفاة (الزعيم عبد الكريم) بايع الناس ابنه ابا بكر . واستمر يدير الامر الى ان قدم (المولى الرشيد) فقبض عليه وعلى عشيرته وقتلهم ، ثم تقرى الشبانات فأفناهم ، وانقرضت دويلتهم .

زبدة الدرس ومحفوظته

ظهر أهل زاوية الدلاء ايام محمد الشيخ بن زيدان . وقصدهم الناس للتبرك والاخذ ، اذ كانت زاويتهم مرجعاً فياضاً للدراسة والثقافة الدينية والادبية ، بل كان مثقفو ذلك العصر يلجؤون الى

---

١) يعرف عند العامة بكروم الحاج .

رجالها في حل مقفل المسائل ومشكلات العلم .

وفي ايام محمد الشيخ ظهر المولى محمد بن الشريف ، فكانت بينه و بينهم مراسلات . و بعد وفاة محمد السعدي قام بالامر ولده ابو العباس بيد ان اخوالـه الشبانات ثاروا في وجهه وقتلوه . واستبدوا بالأمر الى أن قطع جرثومتهم (المولى الرشيد) بن الشريف .

تمرين الدرس

هل اهل زاوية الدلاء عرب ام بربر ؟ على من تلمذ جدهم ابو بكر ؟
في اي سنة توفي محمد الشيخ ؟ من قضى على دويلة الشبانات ؟
لمن ينتسب اهل زاوية الدلاء ، و كيف توصلوا للملك ؟
اكتب عن دويلة الشبانات ما درسته آنفاً .

شكل في سلسلة ملوك السعديين

١ محمد القائم بأمر الله

٢ احمد الاعرج — ٣ محمد الشيخ

٤ عبد الله الغالب بالله — ٦ عبد الملك المعتصم — ٧ احمد المنصور

٥ محمد المسلوخ — (ا) محمد الشيخ — (ب) ابو فارس عبد الله — ٨ (ج) زيدان

٩ عبد الملك — ١٠ الوليد — ١١ محمد الشيخ

١٢ ابو العباس احمد

اجمال في رجال الاشراف السعديين

الامراء	الولاية		الوفاة	مدة الامارة
ابو العباس	٩١٨ـ	خلع	٩٥١	٣٣
محمد المهدي	٩٥١		٩٦٤	١٣
عبد الله الغالب	٩٦٤		٩٨١	١٧
محمد بن عبد الله	٩٨١		خلع	—
عبد الملك	٩٨٣		٩٨٦	٠٣
احمد المنصور	٩٨٦		١٠١٢	٢٦
زيدان	١٠١٢		١٠٣٧	٢٥
عبد الملك بن زيدان	١٠٣٧		١٠٤٠	٠٣
الوليد بن زيدان	١٠٤٠		١٠٤٥	٠٥
محمد الشيخ	١٠٤٥		١٠٥٦	١١
ابو العباس	١٠٥٦		١٠٦٩	١٣

نظـرة

للدولة السعدية اليد العليا في تدارك حالة المغرب وتطهير ثغوره من رجس التمرد والكفر ، واعادة الامارة لمركزها جملة . قـامت هذه الدولة على كاهل رجال التصوف وارباب الزوايا الذين كانوا في ذلـكم العصر كالسيل الجارف . والعجب – أن كان سقوطها على ايديهم ، اذ اصبح رؤساء الزوايا ينشدون الملك لأنفسهم بدعوى الفوضى وانتشار العدو في الاطراف – كأبي زكرياء يحيي الحاحي ، وابي محلي وابي عبد الله العياشي ، واهل زاوية الدلاء اخيراً .

ثم اذا ذكرت الدولة فأْذكرِ بواسطة عقدهـا (ابي العباس المنصور الذهبي) صاحب الفتوحات ، الذي نضجت في عهده العلوم والمعارف وازدهرت انديتها ، فقرب العلمـاء ، واظهر عليهم من منحه الذهبية ما تقر به عين المعرفة والثقافة – لذلك عد عصره من ازهر العصور صنفت فيه التصانيف ودونت لاجله الكتب في شتى الفنون ، وكان من الثقافة درجة عـالية يباحث علماء دولته في مشكلات العلم ، ويطارح الادباء والكتاب ويساجلهم . بل شارك بقلمه في التأليف والتصنيف الا ما يعاب عليه من الاعراض عن العدو المزاحم له بمراسي عواصمه ، والاغارة على اخوانـه المسلمين

بالسودان في عقر ديارهم البعيدة والبعث بعلمائهم مصفدين الى عاصمته .
ثم يا للاسف أن كان عمر تلك النهضة قصيراً حيت اصيبت الدولة في نياطها بالتحاق المنصور بربه اذ انهارت محاسن الدولة وطمست مآثرها في عهد اولاده لغاية صب على المغرب اثناءها داء التفرق ، وظل ساحة للفتن والتطاحن على الرياسة والظهور . كل ذلك كان الوحيد من نوعـه في القضاء على الدولة الى ان تدارك الله هـذا التراب العزيز بالسلطان (المولى الرشيد) فاخذ بيد المغرب ، و بعثه من كبوته العميقة رحمه الله .

كان تمام تخريج هذا الجزء الرابع بقلم مؤلفه عبد الله الجراري عشية الجمعة ٦ شوال عام ١٣٥٦ — ١٠ دجنبر سنة ١٩٣٧ .

ويليه الجزء الخامس

الحـافل بـدولتنا العلويـة

الفاخرة

فهرست الجزء الرابع من الدروس

انتهى طبع هذا الكتاب على مطابع

دار الكشاف

للنشر والطباعة والتوزيع

بيروت – لبنان

في ١٧ ربيع الاول سنة ١٣٦٩ و ٦ كانون الث ٠ ١٩



مطابع دار الكشاف - بيروت